

10

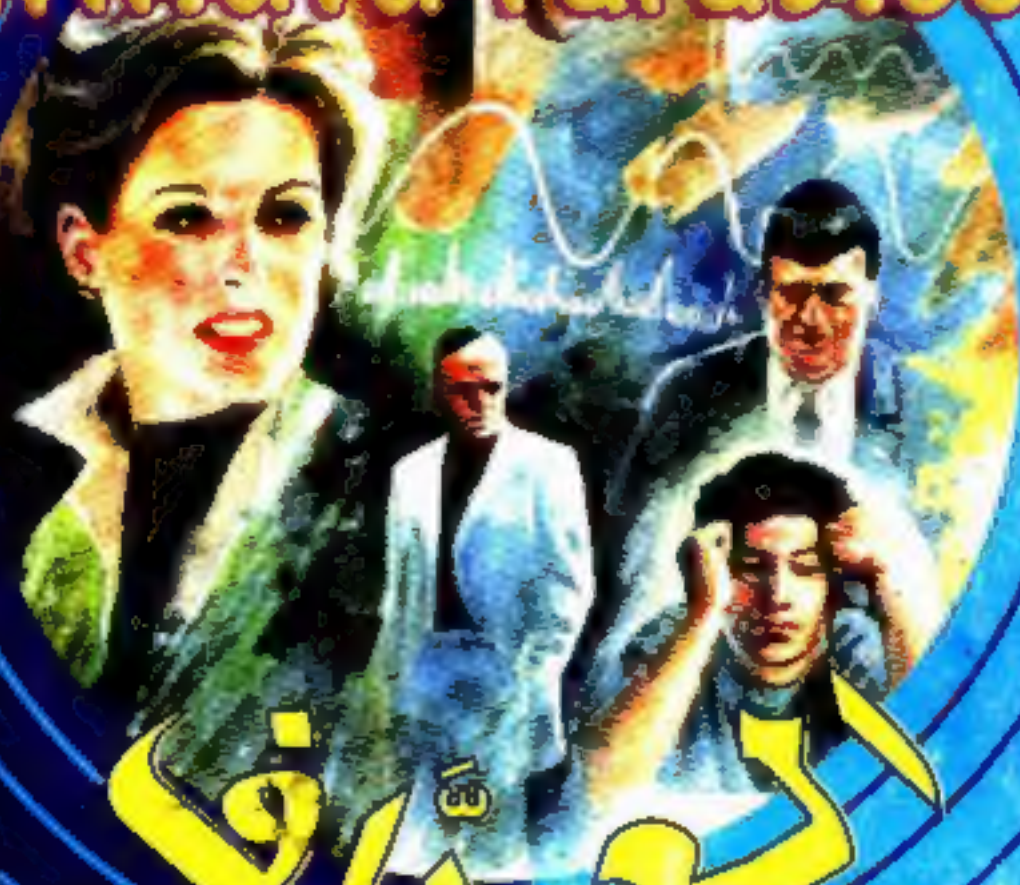
روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

ونبيل فاروق

Looloo

www.dvd4arab.com



حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبداً ، من حرب ما ..

في مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها

أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهاراً .

ولكن هناك ، في كل وقت ، وكل مكان ، حرباً

أخرى ، قد تبدأ وتنتهي ، دون أن يشعر بها سوى

أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و...

والمعرفة ..

فهى حرب تدور في عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

و. نبييل فاروق

وسام إسرائيل ..

للإرهاب

وسام إسرائيلي .. للإرهاب

إسرائيل قررت منح الأوسمة ، لأبطال فضيحة لافون ..

خبر طالعتنا به الصحف ، منذ بضعة أيام ، وعلى نحو مباغت ، يخالف كل الأعراف والنظم الدولية ، والمنطقية ، والمخبرانية أيضا !!

وقبل أن نناقش الخبر (العجيب) ، لابد وأن نعود عبر الزمن ، إلى ما يزيد بعام عن نصف قرن مضى ؛ لنعرف ما هي فضيحة لافون هذه ..

ففي صيف ١٩٥٤م ، ذروة الصراع على السلطة ، بين (عبد الناصر) و (محمد نجيب) ، وذروة الارتفاع في درجات الحرارة ، اندلع حريق مباغت ، في مكتب بريد الإسكندرية ، وهرعت إليه سيارات الإسعاف والنجدة ، لتبدأ قضية مثيرة وعجيبة للغاية ..

بعد فحص فني ، ومعاينة دقيقة ، من الصاغ - اللواء فيما بعد - (ممدوح سالم) ، تبين أن الحريق لم يكن عشوائيا ، أو وليد الحرارة الشديدة ، وإنما كان حريقا متعمدا ، عبر طردين مفخخين بمواد كيميائية شديدة الاشتعال ، وكل منهما

يحتوي جراب منظار ، من محلات (مارون أياك) ، ويحملان عنوانين وهميين ، مما يؤكد أن مرسلهما كان يعلم جيدا متى سيشتعلان ..

ولئن .. حدث هذا في الثاني من يوليو ، واتجهت الاتهامات مباشرة - وكالمعتاد أيامها - إلى الشيوعيين والإخوان المسلمين ، وبدأت التحريات بالفعل ، من ذلك المنطلق ..

وفي الرابع عشر من يوليو ، دخل شابان وفتاة مكتبة المركز الثقافي الأمريكي في الإسكندرية ، واشتغل رواده بالتطلع إلى صدر الفتاة الناهد ، شبه المكشوف ، ولم ينتبه أحدهم إلى جراب المنظار ، الذي يحمله أحد الشابين ، والذي تعمد أن يتركه في ركن غير ملحوظ من أحد رفوف المكتبة ، قبل أن ينصرف الثلاثة في سرعة ، دون أن يظالموا كتابا واحدا ..

وبعد خمس وأربعين دقيقة ، تلقى الصاغ (ممدوح سالم) بلاغا بنشوب حريق ، في المركز الثقافي الأمريكي بالقاهرة !!

كانت الخسائر متوسطة ، بمقياس ذلك الزمان ، إلا أن الذي لفت انتباه (ممدوح سالم) بشدة ، هو وجود جرابين من

النوع نفسه ، فى كل من المركزين ، على نحو يؤكد أن هناك جهة منظمة ، وراء تلك الحوادث المتتالية ..

ومرة أخرى اتجهت الشبهات نحو الشيوعيين ، والإخوان المسلمين ، باعتبار أن كليهما ضد الثورة ، وضد (جمال عبد الناصر) شخصياً ..

وبدأت عملية إعداد الاتهامات ، ولاحقاً المتهمين بالفعل ، و ...

ولكن كانت هناك مفاجأة مدهشة ، فى انتظار الجميع ، فى الذكرى الثانية للثورة ، أى فى الثالث والعشرين من يوليو ..

فى تلك الليلة ، كان البيوزياشى (حسن المناوى) ، معاون مباحث قسم العطارين ، يمر أمام سينما ريو ، عندما فوجئ بشاب يندفع خارجها ، والنار تمسك بسرويله ، والناس خلفه ، تحاول مساعدته على إطفائها ، فتدفع الضابط نحوه بمنتهى الشهامة ، وعالونه على إطفاء النيران ، قبل حتى أن يسأله عما حدث ..

وكان من الممكن أن يمضى الأمر دون أن يتوقف أحد ، خاصة وأن الشاب قد أقنعهم بأن علبه الثقاب قد خالفت قواتين الفيزياء ، واشتعلت فى جيبه تلقائياً ، لولا أن سقط منه جراب منظار ، يحمل اسم (مارون أياك) ، وتناثرت منه مادة تشبه الفحم المسحوق ..

ومع محاولته للفرار ، أدرك معاون المباحث أن الشاب يخفى شيئاً ما ..

وكانت البداية ..

وفى خلال ساعة واحدة ، كان رجال المباحث العامة - أمن الدولة فيما بعد - قد انقضوا على الشاب ، (فيليب ناتسون) ، وانتزعوا منه الكثير .. والكثير جداً ..

وبسرعة مدهشة ، ومع الاعترافات التى ألقى بها (ناتسون) ، تم إلقاء القبض على شريكه ، وهما (فيكتور ليفى) و (روبير داسا) ، والمدهش كما تبين فيما بعد ، أن (فيكتور) كان يحمل بالفعل قبلة ثانية ، يفترض بسها فى سينما أمير ، ولكنه قرّر تأجيل هذا ، بعدما شاهد ما أصاب زميله ، بل ووقف يتابع موقفه وسط المارة ، دون أن يعن أحدهما معرفته بالآخر ، حتى تم حمل (ناتسون) إلى المستشفى ، فاتصرف هو إلى منزله ، متصوراً أن جهات الأمن المصرية لن تنتبه أبداً إلى حقيقة الأمر !!

وعند استجوابهم ، اشترك (فيكتور) و (روبير) مع (ناتسون) فى قصة وهمية ، تم تدريب ثلاثتهم عليها ، شأن أى جواسيس محترفين ، وتشير إلى أنهم مجرد شباب مصرى

غاضب ، من التواجد الأمريكي البريطاني في مصر ؛ لذا فقد سعوا إلى مهاجمة مصالح الدولتين ، لتوجيه رسالة غضب إليهما ، بأنهما غير مرغوب فيهما في مصر ..

وكان من الممكن أن يمضي الأمر على هذا النحو بالفعل ، وأن تغلق القضية على هذا ، باعتبار أنها لم تكن سوى لعب عيال ، لولا أن أحدهم قد عثر خلف برواز زجاجي في منزل (ناتانسون) على ميكرو فيلم ، تمت معالجته بوسائل بدائية ، وبصعوبة بالغة ، ليتبين أنه يحوى تفاصيل تركيب القنابل الحارقة ، واستعمالها ، وطرق التراسل باللاسلكي ، وشفرته ، وتركيب دائرته ، وطرق الاتصال بالآخرين ، مع عنوان مراسلات في باريس ..

باختصار ، كان دليلاً قاطعاً ، على أن السلطات أمام عملية جاسوسية مائة في المائة ..

وهنا انقلبت الصورة رأساً على عقب ، أو أنها قد قضحت بشدة ، وأدركت جهات التحقيق أنها أمام عملية جاسوسية ، دون أدنى شك ..

ومع وضوح الصورة ، اتخذت التحقيقات مساراً مختلفاً ، راحت معه الحقائق تتكشف في سرعة مذهشة ، وبدأ أفراد الشبكة يتساقطون ، واحداً بعد الآخر ..

سقط (صمويل عازرا) ، ثم (ماير ميوحاس) ، وبعدهما (فيكتور ليفي) ، و (موسى ليتو مرزوق) ، و (فيكتورين) أو (مارسيل نينو) ، و (ماكس بنيت) ، و (إيلي نعيم) ، و (يوسف زعفران) ، و (سيزار كوهين) ، ونجح اثنان في الفرار ، وهما (بول فرائك) ، وزعيم الشبكة وقائدها (جون دارلنج) ، أو (إيهام دار) ..

ووسط صخب إعلامي شديد في مصر ، واستنكار وعدم تصديق من المجتمع الإسرائيلي ، تمت محاكمة شبكة المخربين ، وصدر الحكم بإعدام (موسى مرزوق) و (صمويل عازرا) وبالأشغال الشاقة المؤبدة على (فيكتور ليفي) و (فيليب ناتانسون) ، والأشغال الشاقة الخمسة عشر عاماً على (مارسيل نينو) و (روبير داسا) ، ولمسبع سنوات على (ماير زعفران) و (ماير ميوحاس) ، وتبرئة الباقين ..

ومن المدهش أنه من بين الذين تمت تبرئتهم (إيلي حوفي كوهين) ، والذي تم زرعه في سوريا فيما بعد ، من قبل المخابرات الإسرائيلية ..

ولأنه كان من الضروري أن تبرز القيادة الإسرائيلية لشعبها ما حدث ، فقد قررت إلصاق تبعية الأمر كله إلى وزير الدفاع - آنذاك - (بنحاس لافون) ، الذي أجبر على الاستقالة ، ليحمل العار إلى الأبد ، متمثلاً في الاسم الذي اقترن بالعملية الفاشلة ، حتى يومنا هذا ..

فضيحة (لافون) ..

وعلى الرغم من كل هذا ، تقرر إسرائيل منح الأوسمة لمن شاركوا فى الفضيحة !!

ووفقا للتعريف العالمى ، الذى صاغه أنصار إسرائيل ، فالإرهابى هو الشخص ، الذى يأتى أعمالاً ، من شأنها تخريب المنشآت ، وترويع الأمنين ..

فما الذى فعلته تلك الشبكة اليهودية التخريبية بالضبط ؟

ألم تسع لتخريب المنشآت ، وترويع الأمنين ؟

ألا ينطبق عليها ، والحال هكذا ، مصطلح الإرهاب وتعريفه ؟

إن فلعل ، والمنطق ، والفقون ، والعرف ، والنظم الدولى ، ولتعريف العالمى ، يجعل أفراد فضيحة (لافون) إرهابيين ، على نحو لا يقبل الشك ، مما يعنى أن إسرائيل ، والحال هكذا ، لم تعد دولة راعية للإرهاب فحسب ، ولكن مؤيدة وراعية ومكفنة له أيضا !!

ولكن لا ينبغي أن يدهشنا هذا ، مادام على رأسها إرهابى أصيل ، يعشق العنف ، ويتلذذ بالوحشية ، ويستعذب طعم الدم العربى ..

مذكرات 10

رجل مخابرات

الجانب الآخر

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، في كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جداً ..

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا بهم من أنا ..

ما جنسيتي ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، في كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعاً ، لحماية دولة بلدها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصور حتى أن منكرتي هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرد كلمات ..

مجرد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات ..

١٠- الجانب الآخر

لدقيقة كاملة تقريباً ، حرق عريض المنكبين في وجهي ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ونحن نجلس في مكتبه ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، ومال نحوي ، قائلاً :

- هل لك أن تكرر ما قلته مرة أخرى ؟

التقطت نفساً عميقاً ، في محاولة للسيطرة على تلك الرهبة ، التي تتأبني دوماً ، كلما جلست قباليته ، وقلت مكرراً :

- أريد رفع قيمة ذلك الجاسوس ، لدى الدولة الأجنبية ، التي يعمل لحسابها .

تصاهل في القضاة :

- ثم ؟

أجبت في سرعة :

- ثم أوقع عبره أي جواسيس آخرين .

مرة أخرى ، تطلع إلى في صمت ، ثم تراجع في مقعده ، قائلاً :

- هل يمكنك أن تشرح لى الأمر أكثر .

لست أدرى لما التابيتى سعادة جمّة ، عندما سلّنتى تفسيراً
لكثير استفاضة ، حتى أنّى شعرت بحماس عجيب ، وأنا أجيبه :

- من مطالعتى لبعض ملفاتنا ، علمت أنه لدينا عميل خامل ،
فى نفس الدولة ، التى جندت ذلك الجاسوس ، وهناك شكوك
قوية بأن ذلك العميل قد انقلب علينا ، وقرّر التوقف عن العمل
لحسابنا ، بعد أن حصل على مكافأة سخية .. وما فكر فيه الآن ،
هو أن أستخدم هذا الجاسوس لحرق العميل الخامل .

ارتفع حاجباه فى إعجاب واضح ، أثلج صدرى كثيراً ،
وهو يقول :

- إنى مستغرب الجاسوس ، الذى ألقينا القبض عليه ، على
ادعاء الحصول على معلومات مهمة ، تشير إلى أن ذلك العميل
الخامل يعمل لحسابنا ، وعندما يتحققون فى تلك الدولة عن
الأمر ، سيكتشفون أن المعلومة صحيحة ، وسترداد لديهم
قيمة جاسوسهم هذا ، ويرفعونه إلى مستوى متقدم .

تراجعت فى مقعدى ، وحاولت السيطرة على حالة الزهو
التي التابيتى ، وأنا أقول :

- ما أمله ، هو أن يبلغ المستوى الأخير .

اتفق حاجباه فى تساؤل ، فأضفت فى حماس :

- مستوى الجاسوس المقيم .

ارتفع حاجباه لحظة ، ثم عادا ينخفضان ، وهو يقول :

- والجاسوس المقيم هو أعلى رتب الجواسيس .

هتفت فى حماس :

- ليس هذا فحسب ، ولكنه المسئول عن كل الجواسيس
والعلاء فى منطقته أيضاً ، ومحور الارتكاز الرئيسى
لكل شبكات التجسس من حوله .

ثم ملت نحوه ، وتضاعف حماسى ، وأنا أضيف :

- لو عملنا على أن ترتفع رتبة الجاسوس إذن ، وأحكمنا
السيطرة عليه ، وتطويعه للعمل لحسابنا ، فسيمكنا عبّره ،
خلال علم أو علمين ، أن نكشف مجموعة كبيرة من الجواسيس
للمماتين فى نطاقنا .

حك عريض المنكبين ذقنه بضع لحظات ، قبل أن يشير
بيده ، قللاً :

- الجاسوس بطبيعته شخص خائن ، لا يمكن ضمان ولائه ،
وتطويعه لمهمة كهذه لن يكون بالأمر السهل .
هزرت كتفى ، قائلاً :

- ومن قال إن عملنا ينشد السهل ؟!
تسعت ابتسامته ، وبدت لى أشبه بوسام نصر ، وهو يقول :
- على بركة الله إذن .

ولأن القرارات الخطيرة كهذا ، لا يمكن أن تتخذ بصورة
فردية ، فى أى جهاز مخابرات فى العالم ، فقد طلبت عقد
اجتماع ، مع مجموعة من الخبراء ، من بينهم عريض المنكبين ،
وحضره - أيضاً - وجه القنفذ ، حيث طرحنا فكرتى ،
ورحبت مناقشتها معهم لأربع ساعات كاملة ، قبل أن نثال
موافقتهم ، مع بعض التحفظات والتوجيهات البسيطة ..

وكان على أن أبدأ مرحلة التنفيذ ..

ووفقاً لنظام العمل الدقيق ، كنا قد قمنا بتغطية غياب
الجاسوس عن عمله ، تحسباً لما يمكن أن يسفر عنه الأمر ؛
لذا فقد اجتمعت معه على الفور ، ولم يكن قد فارق بعد
حالة الانهيار التى أصابته ، منذ إلقاء القبض عليه ، ولقد

تعمدت أن أتركه أماسى ، فى حالته هذه لبعض الوقت ،
قبل أن أسأله ، فى شيء من الصرامة :
- هل تشعر بالندم ؟!

أوما برأسه فى مرارة ، وهو يجيب :
- وبالضيق أيضاً .

تراجعت فى مقعدى ، وعقدت أصابع كفى أمام وجهى ،
قائلاً :

- وماذا لو أن لديك فرصة للتكفير عما فعلت ؟!

انسدلت الدموع من عينيه ، وهو يغمغم :

- بالمسجن ؟!

ملت نحوه ، قائلاً فى حزم :

- بل بالتعاون .

كان قولى هذا أشبه بطوق نجاة ، تلقاه الرجل وسط بحر
ثائر ، متلاطم الأمواج ؛ لذا فلم يكذب يسمعه ، حتى هتف -
بكل لهفة للدنيا - :

- أنا مستعد لفعل كل ما تريدون .

وبالنسبة لنا ، لم يكن قوله هذا كافياً ، لتأكيد استعدادنا الفعلى للتعاون ، لذا كان على إخضاعه لسلسلة طويلة من الصلوات والتدريبات ، والاختبارات أيضاً ، للتأكد من استعداده ، وولائه ، وقدرته على لعب الدور الصعب ، الذى سيسند إليه ..

كان عليه أولاً أن يبقى على اتصالاته مع جهاز مخابرات الخصم ، على نحو لا يمنحهم أدنى شك فى أمره ، وفى استمرار تعاونه معهم ، وفى الوقت ذاته كان عليه الخضوع لعدة جلسات نفسية خاصة ، تستهدف فى مرحلتها الأولى تحييده ، وفى الثانية جذب ، وفى الثالثة تأكيد استعداده ..

والواقع أن الرجل قد أبدى تعاوناً تاماً ، باعتبارها الفضل فرصة يمكن أن يحصل عليها ، فى موقفه هذا ، وكان يكفيه أن يعود إلى منزله ، ويقضى ليلته بين أسرته ، ثم يعود فى الصباح ، ليتلقى تدريباته ..

ولقد أفادتنا كثيراً التدريبات ، التى تلقاها فى جهاز المخابرات المضاد ، والتى أهلتها للعب دوره ، ثم استغللناها نحن لتوجه به ضربتنا إليهم ..

وتحويل ولاء جاسوس ، ليس بالأمر السهل أو الهين ، أو حتى المضمون ، لذا فهو يستغرق فترة طويلة للغاية ، ويحتاج إلى رجل مخابرات متفرغ طوال المرحلة ..

ولقد احتاج منا هذا إلى ستة أشهر كاملة ، بلغ الإرهاق فى خلالها مبلغه ، حتى إننى فوجئت ذات يوم بوجه القنفذ إلى جوارى ، يقول فى إشفاق ، امتزج برصانته المعهودة :

- أظنك تحتاج للراحة .

انتبهت ، فى تلك اللحظة فقط ، إلى أننى قد غلوت على مقعدى ، فانتبهت متوتراً ، وأنا أقول :

- لا بأس .. إنها غفوة بسيطة .

تمتم فى رصانة :

- الغفوة قد تعنى الكثير ، فى هذا العالم .

شعرت بالحرج لقوله ، واعتذلت على مقعدى ، وأنا أسأله فى شيء من الصرامة ، أردت أن أخفى بها حرجى :

- هل وصلت آخر تقارير المتابعة؟

لوما برأسه إيجاباً ، برصاته التي تستفزني لحيداً ، ووضع أمامي ملفاً كبيراً ، وهو يقول :

- الخبراء يقولون إنه صار مؤملاً .

التقطت نفساً عميقاً في ارتياح ، وأنا أقول :

- عظيم .. يمكننا أن نبدأ مرحلة التنفيذ إذن .

ومرحلة التنفيذ هذه ليست خطوة واحدة ، كما قد يبدو من منطوقها ، وإنما هي عدة مراحل ، مدروسة بمنتهى الدقة ، بحيث نتجح في خداع الجانب الآخر ، وتجعله يرى تطور الموقف منطقياً تماماً ..

في البداية تمت ترقية الرجل ، ونقله إلى منصب يتيح له الاطلاع على مزيد من المعلومات والأسرار ، باعتبار أن هذا سيحقق هدفاً مزدوجاً ؛ إذ سيوقع الجانب الآخر أنه ما زال فوق مستوى الشبهات ، كما سيرر في الوقت ذاته تصاعداً أهمية ما يرسله لهم ..

ثم بدأت مرحلة تطوير المعلومات تدريجياً .

وكان من الواضح أن تلك المرحلة قد جذبت انتباه الخصوم بشدة ؛ إذ راحوا يطالبون الرجل بالمزيد من المعلومات ، في نهم شديد ، إلا أننا حرصنا طوال الوقت ، على أن نمنحهم قدرًا محسوبًا منها ، لا يشبع نهمهم ولا يوقف لهفتهم في الوقت ذاته ..

وعندما حانت اللحظة المناسبة ، بدأتنا في إرسال المعلومات الخاصة بعملينا الخامل ، إلى الجانب الآخر ..

وكانت صدمة لهم ..

صدمة قوية ..

وبسرعة ، تحركوا ، وحاصروا العميل ، وأوقعوا به ..

واحترق ذلك العميل ..

احترق أيضاً الطريق أمام رجلنا ..

وعبر مصدر داخلي ، تلقى الرجل مكافأة سخية ، عن تلك المعلومات الخطيرة جدًا ، مما جعلنا نتأكد من وجود جواسيس آخرين داخل أرضنا ، ثم نكتشف أمرهم بعد ..

ولكن ، وعلى الرغم من سعادتهم ، لم يكن رجال الجاتب
الآخر من البسطاء أو السذج ، فقد تصرفوا كما ينبغي أن
يكون عليه المحترقون ..

واستدعوا جاسوسهم إلى إحدى الدول الأوربية ..
وكانت هذه أخطر مرحلة في العملية كلها ..

على الإطلاق .

نساء الجاسوسية

(أم الجاسوسات)

إيماس إيموندز . جاسوسة أمريكية ، كندية المولد ، عملت بنجاح خلف خطوط الحلفاء أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وربما كانت الجاسوسة الوحيدة في التاريخ التي كانت تعمل ، في هذه الفترة ، التي كانوا يعتبرون فيها المرأة مجرد مربية وزوجة ، وخدمة منزلية فحسب ..

ولقد جاءت (إيماس) إلى الولايات المتحدة من نيو برانزويك بكندا في عام ١٨٥٦م ، عندما بدأت الحرب الأهلية الأمريكية ، وحملت اسم (فرائك تومبسون) وتطوعت للعمل كممرض ذكر في الجيش المتحد ..

ولقد حضرت (إيماس) المعركة الأولى بين قوات الحلفاء والولايات المتحدة وهي معركة بل رن (Bull Run) « جرى للثيران » ، أول معركة قامت بينهما ، وبعد أن قضت عامين في خدمة التمريض ، تطوعت بعد ذلك للعمل كجاسوسة خلف خطوط الحلفاء ..

وفي سبيل هذا ، صيغت (إيماس) جلدها ، وتكررت كشاب أسود ، وارتدت باروكة شعر ، للعبور إلى الخطوط الأمامية ، بالقرب من (يورك تاون) في فا ..

وعلى الرغم من تظاهرها بأنها رجل أسود حر ، إلا أن المشرف حين رآها ، كلفها بالعمل في حصون الحلفاء ، وبعد يوم من العمل الشاق ، استطاعت أن ترسم سكتشًا للحصون ، وتحصى المعدات الموجودة بها ..

في اليوم التالي كانت تحمل الماء للعمل والطعام للقوات ، ومع كونها تحت المراقبة عندما عملت كخفير إلا أنها استطاعت في ليلة ممطرة أن تتراجع للخطوط الأمريكية ، حاملة معها بندقية من بندقيات الحلفاء كتذكير ..

ومع قصر المدة التي قضتها (إيموندز) وراء خطوط الحلفاء - ثلاثة أيام - إلا أنها عادت بمعلومات عسكرية مهمة .

وخلال الأشهر التالية ، استطاعت بنجاح أن تنجز (١١) مهمة أخرى خلف خطوط الحلفاء دون أن يتم كشفها .

في إحدى المرات ذهبت على أنها بائعة جئلة أيرلندية ، وفي مرات أخرى تنكرت في شكل كاتب حسابات للبضائع المجمعة ، أو تظاهرت أنها الصديق الحزين لجندى ميت .

ولم تلصق (إيماس) أبدًا عن الوسائل التي تتبعها ، في الخروج والدخول ، بكل هذه البساطة ، في زمن الحرب ، حتى إن بعض

للمؤرخين شكوا في كونها جاسوسة مزبوجة ، تعمل لحساب
الجانبين ، في وقت واحد !!

ولكن هذا الاعتقاد ينتفى تماماً ، مع الوسيلة ، التي ماتت
بها (إيما) ..

فطوال الوقت ، كان الكل يتوقع أن تلقى (إيما) مصرعها
في ساحة القتال ، أو أن يتم الإيقاع بها وإعدامها ، إلا أنها
- حتى في هذا - فاجأت الكل ..

فلثناء فتحها شخصية الجندي ، وربما لتفلاتها المتواصلة ،
أصيبت (إيما) بحمى الملاريا ، التي اشتدت عليها ، بسبب
رفضها العلاج ؛ خشية كشف حقيقة جنسها ، ثم لم تلبث أن
قامت برحلتها الأخيرة بين الجانبين ، متحاملة على نفسها ،
لتموت في هدوء ، شاحبة نحيلة ، على فراش للمرض ..

وطوال حياتها ، لم تعرف لـ (إيما) علاقة عاطفية واحدة ،
ولم تمنحها حيلتها غير المستقرة فرصة للزواج أبداً ..

ولكنها كانت وما زالت ، تحمل صفة تضمن لها مكانة مهمة
في التاريخ الحديث باعتبارها أم الجاسوسية .. النصائية .

حرب المعرفة

(المعلومات)

٤ - خمسة أسباب للخيانة

٤ - خمسة أسباب .. للخيانة ..

لو أنك سألت أى ضابط مخابرات ، فى أى مكان فى العالم ، عن أدق لحظة فى عمله ، وأكثرها حساسية ، لأخبرك أنها لحظة تجنيد عميل ما ، من مجتمع آخر ، للوصول لحساب جهاز مخابراته ..

فعملية تجنيد فرد ما ، ليصبح عميلاً ، فى قلب العدو ، عملية محفوفة بمخاطر شتى ، وصعوبات بالغة ، لأن فشلها قد يؤدى إلى انهيار شبكة جاسوسية كاملة ، أو يمنح الخصم فرصة القيام بهجمة مرتدة ، وتسديد هدف إلى مرمى جهاز المخابرات الآخر ، من خلال كشف العميل ، أو تطوع هذا الأخير بإبلاغ المخابرات فى دولته ، عن محاولة تجنيده ، واستغلال هذا فى الإيقاع بمن حاول تجنيده ، أو بههاز المخابرات الخصم ..

لذا ، فعملية تجنيد العميل تتم ببطء ، ووفقاً لخطوات دقيقة للغاية ، ومدروسة إلى أقصى حد ، وقواعد لا يمكن تجاوزها ، مهما كانت الأسباب ؛ حتى تنخفض احتمالات الخطأ والفشل فيها ، إلى أدنى حد ممكن ..

وأهم هذه القواعد هى أن تدرك جيداً أنك تقوم بتجنيد شخص ، ينتمى فعلياً إلى معسكر الخصم ، ومن الضروري أن تلتقط فيه طرف خيط ، يقتنع بأنه قابل للتجنيد ، أو يسمح لك بالسيطرة عليه ، وتوجيهه إلى حيث يخدم مصالحك ، إلى أقصى حد ..

وفى هذا المضمار ، تكون أول خطوة دائماً ، هى أن تعرف طبيعة الشخص الذى تسعى لتجنيده ، وتحديد انتماءاته ، واستعداده للعمل لحساب جهاز مخابرات مضاد ، بغض النظر عن ردود أفعاله المباشرة ، أو عصبية المتفجرة ، أو الآراء التى يعلنها طوال الوقت ضد النظام القائم فى دولته

فقد تلتقى بشخص دائم الغضب والشكوى ، من لوجه قصور متعددة فى دولته ، ولكنه غير مستعد لخيلاتها ، حتى لو كان المقابل هو نعيم الدنيا كله .. وعلى الصعيد الآخر ، قد تجد شخصاً صامتاً ، مستكيناً ، وربما يتحدث طوال الوقت عن الشرف والفضيلة ، ولكن لديه استعداداً كبيراً للخيانة ..

وفى كل الأحوال ، فإن الفاسدين ، والطماعين ، والشهوانيين ، والمقامرين ، هم خامسة صالحة للتجنيد ، فى معظم الأحيان ، ولكن هذا لا يمنع من وجود بعض الاستثناءات ، فى عالم

للاجسوسية ، وبخاصة بين شديدي الطموح ، الذين لا تحكمهم قواعد اجتماعية ، أو أخلاقية واضحة ، كما في حالة (هبة سليم) ، خريجة السوربون ، والتي عرضت عمليتها في فيلم (الصعود إلى الهاوية) ، تحت اسم (عيلة كامل) ..

ولأن عملية الاختيار صعبة ومعقدة وشديدة الحساسية والخطورة ، فالأمر يحتاج إلى خبير محنك .. أو إلى قرّار (Spotter) ، ومهمته تشبه كثيراً مهمة الشخص الذي ينتقى اللاعبين المناسبين للفرق الكبرى ؛ إذ إنه يتمتع دوماً بشخصية لطيفة ، أنيقة ، وجذابة في الوسط الذي ينتمج فيه ، وعينه تظان مفتوحتين دوماً ، على المجتمع المحيط به ؛ لانتقاء العناصر الصالحة للتجنيد ، وعقد لأصغر الصداقة معها ، والإبلاغ عنها ، مع جمع كافة المعلومات الخاصة بها ..

ومن النادر أن يقوم للفرق بمفتحة الهدف ، أو مكشفته ، وإنما ينقل ترشيحه ، وما حصل عليه من بيانات إلى المتخصصين في جهازه ، والذين يقومون بتحليل الشخصية وفقاً لما تم جمعه من معلومات ، وتصنيف الهدف وتحديد الوسيلة المثلى للتعامل معه ..

والتصنيف والتحديد هما أهم مرحلة ؛ إذ من الضروري معرفة نوع الخيط الذي سيجذب الهدف إلى المصيدة ، فالشخص المتاح يمكن جذبته وتجنيدته بوسائل مختلفة ، أشهرها خمسة :

المال ؛ وهو أشهر الوسائل وأنجحها ، في هذا المجال ؛ إذ إن الطمع والشراسة هما أكثر الصفات التي تدفع بعض الناس إلى التحالف مع الشيطان نفسه ، لو اقتضى الأمر ، في سبيل الحصول على المزيد ، وفقاً للقاعدة التي تقول : اثنان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال .. وما دام التحالف مع الشيطان ممكناً من أجل المال ، فلماذا يضر التحالف مع العدو ؟!

من هذا المنطلق ، يمكن أن يقبل طالب المال فكرة التجنيد ، والعمل ضد دولته ، ولحساب عدوها ، من أجل مكافآت سخية ، وثراء يحلم به منذ زمن . إلا أنه يظل دوماً تحت المنظار ، حيث إن انقلابه ممكن ، باعتبار أن ولاءه الوحيد للمال فقط ، ومن يمنح أكثر منه يملكه ، مهما كانت هويته .

الجنس ؛ ويعتبر وسيلة قوية لتجنيد أي شخص ، وبالذات أولئك الذين تنهار إرادتهم أمام امرأة جميلة ، أو جسد بض مثير ، وهؤلاء يكثرون في الدول الفقيرة والمنغلقة ..

ولقد كانت المخابرات السوفيتية هي أول من انتبه إلى هذه الحقيقة . في فترة نشأتها الأولى ، مما دفعها إلى إنشاء جهاز خاص مهمته تدريب الفتيات ، منذ من صغيرة جدًا ، على إشباع رغبات الرجال ، وفهم متطلباتهم ، واستيعاب طبيعتهم ، ونزواتهم الطبيعية ، وحتى الشذو ، ومنحهم ما يرضيهم تمامًا ، وبأسلوب شديد البراعة والذكاء ، بحيث يرتبط الرجال بهن ارتباطًا وثيقًا ، يجعلهم مستعدين للقتل في سبيل الاحتفاظ بهن ..

وما دامت الأمور قد بلغت حد القتل ، فما مشكلة التجسس ؟

أو حتى الخيانة ؟

المبدأ : وهو أخطر دافع لتجنيد المرء ضد مصلحة وطنه ؛ إذ إن الشخص يكون مستعدًا للتضحية بحياته نفسها ، من أجل الخصم الذي ينجح في إقناعه بأنه إنما يفعل هذا في سبيل مبدئه ، أو عقيدته ، وتتوقف درجة نجاح جهاز المخابرات ، في تجنيد عميل ما - من هذا المنطلق - على براعته في استغلال ارتباط ذلك العميل بمبدئه ، وقدرته على

إقناعه ، أو العقيدة نفسها ، أو دفعه إلى التطرف في مبدئه ، إلى حد القتل من أجله ..

ومن أشهر حالات العمل لحساب جهاز مخابرات خصم ، من أجل المبدأ عملية (كيم فوبلي) ، نائب رئيس جهاز المخابرات البريطاني السابق ، الذي انتسب بالشبيوعية ، واعتنقها ، فاستغل جهاز المخابرات السوفيتي هذا ، وجنده للعمل لحسابه ، طوال سنوات عديدة ، ثم نجح في تهريبه إليه ، قبل أن ينكشف أمره ..

وفي حالات أخرى ، استغلت بعض أجهزة المخابرات العقائد لدفع البعض إلى القيام بعمليات تدمير وتخريب داخل مجتمعاتهم ، وإلى الحد الذي يضحون فيه بحياتهم نفسها ، من منظور يتصورون أنه عقائدي تمامًا ، في حين أنهم ضحايا مخطط كبير لإضعاف الاقتصاد ، وإشاعة الفوضى ، والبنية ، بحجة حماية العقيدة ، وإقامة العدل الإلهي ..

الرفض : في هذه الحالة بالتحديد ، يتم رصد الأشخاص ، الراضين لنظم وعقائد وحكومات مجتمعاتهم ، والغاضبين مما يحيط بهم ، أو الناقمين على ما خسروه في عهد ما ، وتجنيدهم ضد هذه النظم ، واستغلال غضبهم ونفقتهم ، كطاقة

سلبية مدمرة ، تدفعهم لبذل قصارى جهودهم من أجل تدمير مجتمعاتهم ، والانتقام مما أصابهم ، دون أن يدركوا أن هذا يدمرهم شخصياً ، مع مرور الوقت ..

الخطأ : إحدى الوسائل المضمونة ، لتجنيد الأفراد ، رغماً عنهم ، للعمل لحساب جهاز مخابرات خصم ، وذلك عن طريق رصد خطأ ما للشخص ، أو دفعه لارتكاب خطأ ما ، أو حماقة ما ، أو التورط في علاقة غير مشروعة ، وتسجيل هذا الأمر ، وتوثيقه ، ثم إطلاعه عليه ، وتبصيره بما يمكن أن يؤدي إليه كشفه ، من تدمير لمستقبله وحياته ، وطموحاته وآماله ، مع مزج جانب التهريب بلمحات من الترغيب ، حول الفوائد التي سيجنيها ، مالياً وعملياً ، من العمل لحساب جهاز المخابرات الخصم .. وهكذا ..

ومن أهم الأسباب ، التي تدفع إلى هذا الأسلوب ، وجود لهدف في موقع مهم ، وفشل للوسائل الأخرى في الإيقاع به ..

ومن الضروري جداً تحديد الوسيلة المناسبة ، لتجنيد شخص ما ؛ إذ إن استخدام وسيلة غير مناسبة يؤدي إلى خسارة العنصر ، وفشل العملية كلها ، وكشف اللعبة من أسسها ، وربما يدفع الهدف إلى رد فعل عكسي ، فيبلغ أجهزة الأمن في دولته ..

ومهمة جهاز المخابرات ، هي تحديد الشخص المطلوب ، والاقترب منه ، ومعرفة عن قرب ، ورصد نقاط ضعفه ، واتجاهاته ، وشففه بالمال ، أو النساء ، أو رفضه لمجتمعه ، أو انتمائه للعقائدي ، وتحديد الوسيلة المناسبة للتعامل معه ..

وإذا ما ثبت أنه شخص قابل للتجنيد ، يتم إرسال محترف للقاءه ، ومقبلته وجها لوجه ، بوسيلة يرتبها الفرار ، والذي يضمن حدوث اللقاء ..

وأثناء اللقاء ، يقوم المحترف بإعادة تقييم الهدف ، في ضوء كل ما تتيح له من معلومات ، وتقارير نفسية ومخابراتية ، فإذا ما تيقن من صلاحيته ، عن طريق المواجهة المباشرة ، فإنه يبدأ في طرح الأمر عليه تدريجياً ، وهذا هو الأسلوب المعتاد .. أو مباشرة ، وهو ما حدث في حالات نادرة جداً .. وفقاً لما يتراءى له ، معتمداً على أسس مدروسة ، بالإضافة إلى خبرته ، في فهم وتحليل الشخصيات ..

ويعتبر الأسلوب التدريجي هو الشائع والأكثر أمناً ، في معظم حالات التجنيد ؛ إذ إنه يعتمد في البداية على جذب الهدف إلى منطقة وسط آمنة ، كأن يطلب منه جمع المعلومات لصحيفة ما ، أو لمنظمة محلية تدعو للسلام ، وبعدها يطلب

بجمع معلومات عن جهة ثالثة ، مثل الروس فى أوربا ، أو الأمريكيين فى مصر ، بحيث يفتاد جمع المعلومات وإبلاغها ، دون شعور بالقلق أو الذنب .

وبعد ، تنهى مرحلة المصارحة ، وتكشف الأوراق ، وهى مرحلة قد لا تاتى أبدا ، لو أن العميل يؤدى كل المطلوب منه ، دون طرح أسئلة ، وقد تحتم الظروف بنوعها بقفزة مفاجئة ، إذا ما طرأ أمر يستدعى هذا ، ولكن فى كل الأحوال ، لابد من التوغل فى عملية المصارحة برفق ، وبعد أن يقرر الخبراء أنها ممكنة ، ولن تؤدى إلى رد فعل عنيف ، أو أن العميل قد تورط بالفعل ، ولم يعد باستطاعته التراجع

وفى كل الأحوال ، وأيا كانت وسيلة التجنيد ، فلا بد وأن يوضع فى الاعتبار أن نك العميل يصل لحساب دولة خصم لدولة مسقط رأسه ، التى ينتمى إليها ، ويحمل جنسيتها فعليا ..

لذا كان من الضروري إيجاد وسيلة ، لضمان السيطرة الدائمة عليه ..

ووسيلة السيطرة النمطية ، والأكثر انتشارا فى الوقت ذاته ، هى دفع العميل إلى التوقيع على إيصالات ، بكل المبالغ التى يحصل عليها ، على نحو يوضح تورطه فى الخيانة ، والعمل

على أن يدرك هذا فيما بعد ، بحيث تصبح تلك الإيصالات سيفاً مسلطاً على عنقه طوال الوقت ، ودافعا لتوغله أكثر وأكثر ، باعتبار أن التراجع لم يعد ممكنا ..

ولكن لوقع أن التراجع يظل يوما ممكنا ، مهما بلغت مرحلة التورط فى الخيانة ؛ إذ إن معظم أجهزة المخابرات العالمية تفضل أن يأتىها العميل ليترف بخيائته ، وأن تمنحه فى هذه الحالة عفوا وحصانة ، على أن يظل شوكه فى ظهرها ، إن لم تكشف أمره ..

وفى مصر هناك قانون يمنح الجاسوس عفوا لو أنه أدلى باعترافه أمام الجهات المسؤولة ، قبل كشف أمره والإيقاع به ..

وذهب العميل من تلقاء نفسه للاعتراف بمحاولة تجنيده ، أو حتى بتورطه فى الخيانة ، بمنح جهاز المخابرات فرصة نادرة لإعادة تجنيد ذلك العميل ضد جهاز المخابرات الخصم ، فيما يعرف بأسلوب الجاسوس المزدوج ..

وما من مصطلح أسوأ فهمة ، من بين كافة مصطلحات المخابرات ، مثل الجاسوس المزدوج ؛ إذ يتصور البعض أنه شخص حقير يلعب على الحبلين ، أو أنه الانتماء ، على

أفضل التصورات ، ولكن الواقع أن هذه التصورات خاطئة تماماً ، وتسعى إلى أجهزة المخابرات في جعلها : فمن المستحيل أن ينجح فرد واحد ، مهما بلغت عبقريته ، في أن يخدع جهازى مخابرات ، بكل أقسامهما ، وخبرائهما ، وخبرائهما ..

ومن غير المنطقى - أيضاً - أن يكون هناك شخص طبيعى ، ينتمى إلى جهتين متضادتين !!

الجاسوس المزدوج إذن هو شخص يعمل لصالح جهتين ، تتصور كل منهما ، وتوقن من أنه يعمل لحسابها ، وينتمى إليها ، في حين أنه ينتمى فعلياً لجهة واحدة منهما ، تعاونه بكل براعتها ، وخبرتها ، وخبرائها ؛ لخداع الجهة الأخرى ..

والتعامل مع الجاسوس أو العميل المزدوج أمر دقيق للغاية ؛ فالطرف الآخر يعلم أيضاً أنه جاسوس ، ويتعامل معه من منطلق حذر ؛ لذا فاللعبة في هذه الحالة بالتحديد تبدو أشبه بلعبة الشطرنج ، حيث تكون القطع مكشوفة ، والمواجهة حامية ، والبراعة في أقصاها ..

ثم ، وكما يحدث في معظم مباريات الشطرنج منذ الأزل ، يكون هناك غالب ومغلوب في النهاية ..

وفي بعض الأحيان ، قد يتورط شخص ما في مستنقع الخيانة ، وبدلاً من أن يعترف بهذا مباشرة ، فإن الطمع يدفعه إلى الحصول على كل ما يمكنه من العدو أولاً ، ثم يأتي بعدها لينفخ عن محاولة تجنيده ، كوسيلة لتنظيف ملفه ، والفوز بالتقييمتين في آن واحد ..

مقابل الخيانة ، والعفو ..

ولكن ما من جهاز مخابرات يمكن أن ينجح بهذه السهولة ؛ إذ إن الجاسوس ينسى ، والحال هكذا ، أنه يتعامل مع خبراء ، وأنه مهما حاول إخفاء الأمر ، أو تصور أنه داهية ماهر ، ستفلت منه كلمة ، أو حتى معلومة صغيرة ، وهم سيكشفونه ، ويواجهونه ، ويوقعون به حتماً في النهاية .. وهذا ما حدث بالفعل ، في الآونة الأخيرة ، وما أدى إلى أن يفقد أولئك المتحليلون فرصة لفك المآح ، والإفلات من لسقوط أيضاً ..

فلخية علر ، مابعد علر ، مهما بلغ حدها ، أو تعدت لسبيلها ..

والمهام التي توكل إلى الجاسوس بعد تجنيده تختلف وتتباين إلى حد كبير ، وترتبط بموقعه ، ودوافعه ، وزمنه ، وطبيعة العلاقة بين دولته والدولة التي جندته ، فقد يطلب منه عمل استطلاع لرأى رجل الشارع ، أو إطلاق شائعة ما ، أو نقل معلومات اقتصادية ، أو علمية ، أو حتى عسكرية ،

أو الحصول على وثائق سرية ، أو تصويرها ، أو نسخها ، وربما يطلب منه القيام بعمليات تخريب واسعة أو محدودة أو حتى البقاء في حالة خمول ، حتى تحدث أحداثاً بعينها ، أو يصل هو إلى موقع خاص ، دون أن يقوم خلال هذا . بأى تصرف مثير للشبهات ، من شأنه إعاقته تقدمه ..

وفي بعض الأحيان يكون الجاسوس من دولة أخرى لا يتصل على نحو مباشر بالدولة التى يعمل لحسابها ، كتجنيد ألماني مثلاً للتجسس لحساب إسرائيل ، أو فرنسي فى قلب كوريا الشمالية ، أو ياباني لحساب مصر .. وهكذا . وهذا يساعد على إبعاد الشبهات عنه ، إلى حد كبير . وبخاصة إذا ما كان ينتمى إلى دولة ذات عداوة تاريخية واضح مع دولة العدو ، كما حدث فى قضية مدرب الخيول الألماني (لوتز) ، الذى ألقى القبض عليه فى مصر فى الستينيات ، بتهمة التجسس لحساب إسرائيل ..

ولقد كان (لوتز) هذا جاسوساً مقيماً ، أى الجاسوس المستقر ، الذى يتابع وينظم شبكة الجاسوسية كلها ؛ لذا فقد كان سقوطه مدوياً ..

وإسقاط الجواسيس هذا أمر حرقى للغاية ، و

وله حديث آخر .

أشهر الجواسيس

رودلف إيفانوفيتش أبل
(١٩٠٣م . ١٩٧١م)

أشهر الجواسيس ..

رودلف إيفتوفيتش أبل

(١٩٠٣م - ١٩٧١م)

جاسوس سوفيتي مهم ، كان يعمل في الولايات المتحدة في الخمسينيات ، وتم استبداله بـ (فراتسيس جاري هاورز) قائد طائرة التجسس (يو - ٢) . بعد خمس سنوات من القبض عليه .

ويقال إن اسمه الحقيقي (الكسندر إيفتوفيتش بنوف) ، المولود في مدينة على نهر الفولغا ، وكان والده صانع أدوات معنوية ، ينتمي لجماعات تحررية . وإبه ساعد والده في توزيع الأدب البولشيفي .

ولقد درس (أبل) الهندسة ، وكانت له معرفة بالكيمياء والفيزياء النووية ، وانضم للحزب الشيوعي الصغير (كوموسومول) في ١٩٢٢م ، وإن أصرت المصادرة البريطانية على أنه قد ولد في بريطانيا باسم (ويليام فيشر) ..

كان يتقن الإنجليزية والألمانية والبولندية واليديشية إتقاناً تاماً كلغته الروسية ، وخدم في وحدة اتصالات الجيش الأحمر ، وعمل بعدها كمدرس للغة الروسية حتى عام ١٩٢٧م ، عندما التحق بالـ (او . جي . بي . يو) ، ولكنه استدعى ثانية إلى الجيش الأحمر كمخصص راديو ..

خدم على الجبهة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية كضابط مخابرات ، وسجل أنه اخترق (ابوير) كسائق ، تحت اسم (يوهان فايس) ، وقد استخدم أيضاً في هذه الفترة اسم (هارتن كولنز) .

وبعد اجتياح الألمان للاتحاد السوفيتي بقليل ، تمت ترقية (أبل) ، وأصبح وكيلاً عريفاً في بحرية الجيش الألماني ، كما تم تقليده وساماً .

ومع نهاية الحرب ، حمل (أبل) رتبة الميجور فى
الـ (ان . كيه فى دى) . ثم دخل كندا بطرق غير
شرعية عن طريق فرنسا عام ١٩٤٧م مستخدماً اسم
(اندرو كابوتيس) . ثم عبر الحدود إلى الولايات المتحدة
فى عام ١٩٤٨م .

وبحلول عام ١٩٥٤ كان يحمل اسم (إميل ر . جولدفوس) .
كرسام فى مدينة (نيويورك) . وخدم (أبل) كجاسوس
مقيم لكـ (كى جى بى) فى منطقة (نيويورك) ، حيث كان
يتحكم فى شبكة للتجسس السوفيتية المحلية ، والعمليات التى
تتم فى شمال ووسط أمريكا ..

وعن طريق راديو لاقط ، كان يرسل المعلومات ويتلقى
التوجيهات من موسكو ، على موجة قصيرة ، إلا أن ذلك
- بالطبع - لم يمنع (أبل) من زيارة موسكو فى بعض
الأحيان ، ما بين ١٩٥٤م ، ١٩٥٥م ؛ للتأقش مع كبار الضباط
فى الـ KGB ، وفى الولايات المتحدة ، ترقى (أبل) إلى
رتبة الكولونيل ..

وفى ٢١ يونيو ١٩٥٧م ، ألقى مكتب التحقيقات الفيدرالى
(FBI) القبض عليه ، بعد إعطائه (جيمس ف . بوزارت) ،
بائع للصحف نيكلأ مجوفا ، يستخدم فى نقل الرسائل السرية ،
وكان هذا هو دليل الإثبات ضده ..

أدين (أبل) وحكم عليه بالسجن لمدة ٣٠ عاماً ، مع غرامة
قدرها ٣٠٠٠ دولار ، وظل بالسجن إلى أن تم استبداله فى
١٠ فبراير ١٩٦٢م بالتطيل (باورز) ، على كوبرى (جلينيك)
الممتد شرق وغرب برلين ..

بعد عودته إلى الاتحاد السوفيتى ، شارك (أبل) بفاعلية
فى تدريب وإعداد كوادر جديدة بالمخابرات السوفيتية ، ذلك
طبقاً لما يروده السوفيت أنفسهم ..

وتبعاً لمصدر سوفيتى ، كان (أبل) - كرجل صغير السن -
يبدو خجولاً ، ولكن عينيه المفعمتين بالحياة والنشاط والدهاء ،
وابتسامته الساخرة اللاذعة ، وإيماءته الواثقة الأنيقة -
كانت تتم عن إرادة قوية ، ونكء متوقد ، وتفاان تام ..

وقد أنشأت الحكومة السوفيتية علناً بـ (فيل) كضابط مخابرات في ١٩٦٥م ، وكان واحداً من خمسة ضباط في الـ KGB وضعت صورهم على طوابع بريدية ، أصدرها الاتحاد السوفيتي في ٢٠ نوفمبر ١٩٩٠م .

العـرّاف

قصة العرّاف

١- المهاجر ..

فرحة جنونية اجتاحت (إسرائيل) . من قصصها إلى قصصها ، عقب انتصارها الساحق في حرب يونيو ١٩٦٧ م ، بعد أن احتلت ، خلال أسبوع واحد ، من ثلاث دول عربية محاصرة ، ما يساوي تقريباً ضعف مساحة دولتها بغزة واحدة ، ولتفتحت لوداج جنرالات الجيش الإسرائيلي زهواً وفخراً ، وهم يملون صدورهم بنيشين وأوسمة النصر . ويمتلئون صفحات الصحف بأحاديث فخمة عن عظمة الجيش الاسرائيلي . وقدراته الأسطورية ، التي جعلته منيع لا يقهر

ولأن الحصيلة كانت تفوق نحلهم نفسها ، غرق الإسرائيليون في نشوة النصر حتى النخاع . وتحول جنرالاتهم ، في ضربة واحدة ، من قادة جيوش إلى نجوم لامعة في المجتمع الإسرائيلي ، تملأ صورهم وتصريحاتهم الصحف والمجلات . وتطل من شاشات التليفزيون في (إسرائيل) والغرب كله .

وفي غطرسة لامثيل لها ، راحت وسائل الاعلام الاسرائيلية تصف تلك الحرب القصيرة بأنها معجزة جديدة ، من معجزات العصر الحديث ، تستحق أن تكتب في التوراة - على حد قولهم -

واعتبرتها شهادة تقدير لجهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) . الذي أعلن أنه صاحب الفضل الأول فيما سماء بالانتصار الساحق على الجيوش العربية مجتمعة ، بفضل خداعه لهم ، وحصوله على كل المعلومات الممكنة منهم ، وخرج (موسى ديان) ، وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك ، ليعلن في مؤتمر صحفي أن الانتصار على العرب لم يكن عسيراً ؛ لأنهم لا يقرءون ، ولا يتعلمون من تاريخهم وماضيهم ..

أما جنرالات (إسرائيل) ، فقد حولهم كل هذا إلى ذكور طواويس ، من فرط الرهو والغرور ، حتى لقد نسوا أو تناسوا حقيقة تلك الحرب الخطفية ، واعتبروها بالفعل أعظم انتصارات التاريخ

ولأن للشهرة والأضواء بريقاً ، يخبو إلى جواره كل بريق ، ذاب جنرالات الجيش الإسرائيلي وسط الهتاف ، والتصفيق ، والتكريم ، والاحتفالات ، وأصابعهم ما يطلق عليه علماء النفس (لسترخاء ما بعد النصر) ..

وطوال الوقت ، وفي كل أحاديثهم ولقاءاتهم الشخصية ، كان جنرالات إسرائيل يسترجعون ما حدث ، ويؤكدون أنه ليس

لتصلراً على الجيوش العربية فحصب ، وإنما على الإرادة العربية أيضاً ، وأنه مهما طال الزمن ، لا يمكن أن تأتي العرب صحوة جديدة ، ينهضون فيها من هزيمتهم هذه ..

ومن وجهة نظرهم ، كان انتصارهم أهدياً ..

وبدون أدنى شك ..

وفي نفس الوقت ، الذي غرق فيه الجنرالات في نشوة النصر ، وما أعقبه من انهيار إعلامي عالمي ، كان عشرات المهاجرين يتوافدون على (إسرائيل) ، ويتهاافتون على القدوم إليها ، من كل بقاع الأرض ، متصورين أن حرب يونيو ١٩٦٧م ، ستحوّلها إلى جنة الله في الأرض ، وستضع فيها عشرات الفرص لكل حالم ..

وبمنتهى العناية والدقة ، راح الإسرائيليون يفحصون ويدرسون أوراق كل مهاجر جديد ، من المئات الذين يفدون يومياً ، للتيقن من هويتهم ، وجنسياتهم ، ودينتهم ، ومراجعة كل نقطة يمكن أن يتبادر إليها الشك في تاريخهم كله ..

ومن بين هؤلاء المهاجرين ، كان (دافى كرينهال) ..

شاب ضئيل ، نحيل ، شاحب الوجه ، قصير الشعر ، من أصل سوفيتي ، يوحى كل شيء فيه بالفقر ورقة الحال ، وإن بدت في عينيه التماعاة عجيبة ، توحي بأنه يتمتع بذكاء خاص ، ونقاء فطري مدهش ..

وعلى عكس باقي الوافدين ، جلس (دافى) صامتاً مستكيناً ، ينتظر دوره في صبر ، وهو يحمل حقيته الوحيدة الصغيرة ، والتي تأكلت أطرافها ، وتهازل أحد فقلبيها ، وبدت في حالة أكثر مدعاة للشفقة منه ..

وعندما حان دوره ، وقف أمام ضابط الهجرة الإسرائيلي صامتاً مستكيناً ، تتطلع عيناه إلى قدميه وحدانه للوث في لرتبك ، والضابط يراجع أوراقه ، ومستندته ، قبل أن يسأله ، في شيء من الصرامة :

- لماذا أتيت إلى (إسرائيل) ؟!

بدت الحيرة على وجه (دافى) ، وتحاشى النظر في عيني الضابط ، شأن أي شخص اعتاد الخضوع للسلطة ، وهو يجيب بصوت تسمعه بالكاد :

- إنها أرض الميعاد .. أليس كذلك ؟!

كان الضابط الإسرائيلي يتوقع ردًا أكثر تحديدًا . إلا أن الوسيلة التي نطق بها (دافى) عبارته ، والاستكاته التي أوحى بها مظهره ، جعلتا الضابط يعيد إليه أوراقه ، قائلاً في شيء من الضجر :

- أنتظر في ذلك للصف هناك .

حمل (دافى) حقيته الصغيرة المتهانكة ، في استكاته عجيبة ، وأطاع أمر الضابط ، ليقف في الطابور الطويل لساعة أخرى ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

وفي مساء ذلك اليوم ، حصل (دافى كرينهت) على تصريح الإقامة في (إسرائيل) ، وتم نفيه . مع عدد كبير من المهاجرين الجدد إلى أقرب مزرعة أو (كيويتز) ، ليعمل بالزراعة ، والأعمال الوضيعة الشاقة ، حتى يتم العثور على عمل مناسب له ..

هذا ما يقولونه للجميع . ولكن الواقع أنه ما لم يكن لدى المهاجرين خبرة كبيرة ، في مجال مهم وحساس ، فباتهم ينمون أمره تمامًا ، فور إرساله إلى (الكيويتز) ..

وهذا ما حدث مع (دافى كرينهال) ..

ولكن الشاب لم يعترض ، ولم يرسل شكوى واحدة ، وإنما عيش حياته في تلك المزرعة ، كما لو أنه يقوم بالعمل ذاته طيلة عمره ، فراح يعمل طوال الوقت ، ويوزع ابتسامته الشاحبة المرهقة على الجميع ، على الرغم من كل ما يبذله من جهد . ثم وجد في آخر النهار الوقت الكافي ليعاون عجوزًا على حمل الماء ، أو الاستماع إلى شيخ يندب حظه العاثر ، الذي جعله يصدق الدعاية الإسرائيلية ، ويترك وطنه في (بولندا) ، لينقذ نفسه وسط هذا العذاب الشاق ، أو مواساة امرأة فقدت ابنها في حرب سابقة ..

وبدون كلل أو ملل ، وطول ثلاثة أشهر كاملة ، قص (دافى) قصته أكثر من ألف مرة ، على الرغم من بساطتها ..

فهو مجرد يهودى سوفيتى ، اعتقل الحزب الشيوعى والده ، بسبب خلاف في رأى . وهو بعد في الحادية عشرة من عمره ، وقضت أمه عمرها كله لتربيته وتثقلته ، وهي تروى له عن والده ، وتحلم معه بعولته ، دون أن يراه أحدهما قط ، طوال السنوات التالية ..

ثم التقى برجل يوغسلافى ، ساعده على عبور الحدود ، ورافقه إلى (تركيا) . ثم بقى هناك ، بعد أن أوصى قبطان سفينة شحن صغيرة بإتزاله في (تل أبيب) ..

وكان الكل يستمعون إلى (دافى) فى تعاطف مشفق ، بسبب ضغطه الواضح ، وطيبته وتهذيبه ، وجسده الضئيل القليل ، ولكن هذا لم يغير شيئا من طبيعة حقيقته المرتبة للشفقة ، أو يسمح لهم بتكرهه عندما يطلع النهار ، وتبدأ رحلة العذاب اليومية ..

حتى كانت تلك الليلة ..

ليلة صافية ، امتلأت فيها السماء بالنجوم ، وتألقت وسطها القمر ، الذى يفسر المنطقة كلها بضوئه الفضى الحالم ، وينعكس على أعواد القمح فتبدو أشبه بنهر من الزئبق ، يتمايل بنعومة لا مثيل لها ..

فى تلك الليلة ، كان (دافى) يجلس مع مجموعة من رفقه ، ويتحدث مع جارته الفتاة (راشيل) ، وأنها فعجوز (لستير) ، و

وفجأة توقف (دافى) عن الحديث ، وشرد بصره بضع لحظات ، وزاغت عيناه على نحو ألقى (راشيل) ، فهزته فى رفق ، قائلة :

- (دافى) .. أين ذهبت ؟!

لشوان ، لم يبد عليه حتى أنه قد سمعها ، فعادت تهزه بشيء من التوتر ، قائلة فى عصبية :

- (دافى) .. ماذا أصابك ؟!

وهنا ، استدار إليها الشاب فى بطم عجيب ، وتطلع إلى عينيها مباشرة ، إلا أن نظراته ظلت شاردة ، وكأما يسبح فى عالم آخر ، قبل أن يقول بقة - وكأته يحدث نفسه ، أو يتحدث مع شبح خفى :

- لقد أخطأ (يارون بلونسكى) كثيرا ، عندما رفض الاعتراف بما فعل .

لم يكذ ينطق العبارة ، حتى انتفض جسدا (راشيل) وأنها بمنتهى الغف ، وحدثا فيه بذهول تام ، وهتفت الأولى بصوت بدا أشبه بالترعب :

- لماذا تقول هذا ؟! لماذا ؟!

هذا لأن ما ذكره (دافى كرينهال) ، كان بالنسبة للأمم وابنتها مذهلاً ..

وبكل المقاييس ..

٢ - قاري الغيب ..

امتقع وجه اليهودية (راشيل) ، وشحب حتى كاد يحاكي
وجوه الموتى ، وتبادلت نظرة هنع مذعورة مع أمها ، قبل
أن تُحلق كلتاهما في وجه (دافى) الشاب اثبات ، بكل ذهول
وتوتر الدنيا ..

فما نطقه منذ لحظات كان مذهلاً للمرأتين .

وإلى أقصى حد ..

إن (يارون بلونسكى) هذا ، الذي تحدث عنه (دافى) ، كان
صديقاً قديماً للقاتلة (راشيل) في (بغداد) ، ولقد ربطت
بينهما قصة حب طويلة ، تحوكت في سرعة إلى علاقة غير
شرعية ، أسفرت عن حمل صفاح ، لم يكد (يارون) يعظم بأمره ،
حتى استنكره تماماً ، ورفض الاعتراف به ، بل وابتعد عن
(راشيل) ، وتهرب منها لأسبوع أو يزيد ، ثم لم يلبث أن
فر من (بغداد) ، ومن (العراق) كلها ، إلى جهة مجهولة ،
وانقطعت أخباره عن (راشيل) وعائلتها تماماً ..

ولم يكن من الممكن . بل كان المستحيل أن يعرف
(دافى) حرفاً واحداً عن هذه القصة ، التي بذلت أسيرة

(راشيل) قصارى جهدها لإخفاتها ، ولم تتحدث عنها
أو بشأنها مع أى كائن كان ، في محاولة لنسيانها ، ونسيان
ما بذلته من جهد ومال : لإجهاض (راشيل) ، وإنقاذها من
الفضيحة والعار ..

بل ، وربما كان هذا هو الدافع الرئيسى ، لهجرة أسرة
(راشيل) من (العراق) إلى (إسرائيل) ، في سرية تامة ..

فكيف عثم (دافى) بالأمر ، وتحدث عنه بهذه البساطة
والمباشرة .

وبشفتين مرتجفتين وصوت أشبه بالاحتضار عادت
(راشيل) تنغمم :

- ماذا قلت يا (دافى) ؟ ماذا قلت ؟!

لم يبد حتى أن الشاب قد سمعها ، وهو يرنو بنفس الشرود
العجيب :

- لقد شعر بالندم والخزي ، وقرر أن يدفع الثمن .. سيدفع
قريباً

راح يكرر العبارة الأخيرة ، وقد شمنت رعدة غريبة ، سرعان
ما تحوكت إلى رتجافة قوية ، اهتز معها جسده الضئيل كله ،
مع عرق غزير . أغرق وجهه الشاب التحيل ، قبل أن يهوى
بغثة فيما يشبه الغيوبة .

وفي جزع حديقي ، التفت الكل حول (دافى) ، يحاولون إسعافه وإيقاظه ، فيما عدا (راشيل) وأنها ، اللتين تشبهتا ببعضهما البعض ، وامتزجت لرجلتيهما . وكل منهما تتساعل في دعر :

- كيف كشف (دافى) ما سعيينا لإخفائه طويلاً ؟

كيف ؟ كيف ؟

وبعد دقائق خمس من غيبوبته ، استعاد (دافى) وعيه بفتة ، واعتدل جالساً ، يتساعل في حيرة عما حدث .

وعندما روى له بعضهم ما فعله ، بدت عليه الدهشة والحيرة ، وارتيك ، وحملت ملامحه ما يشبه الذعر ، وهو يؤكد أنه لا يذكر حرفاً واحداً مما قالوه ، ولا يعرف حتى من هو (يارون بلونسكى) هذا ..

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لولا ما حدث ، مع بداية الأسبوع التالى ..

فجأة ، وبلا مقدمات ، تلقت (راشيل) رسالة من (أوربا) ، بدخلها شيك بمبلغ ضخيم ، يمكن صرفه من أى بنك فى (إسرائيل) ، ويحمل توقيعاً كاذباً قلبها يتوقف لرؤيته ، من فرط ذهولها ..

توقيع (يارون بلونسكى) ..

وعلى ظهر الشيك ، كانت هناك عبارة قصيرة ، بخط (يارون) نفسه ..

« تقبلى اعتذارى » ..

وجنت الأسرة فرحاً بذلك المبلغ الضخم ، ومع فرحتها ، انتشرت القصة فى المزرعة كلها ، وراحت الأم ترويه لكل من تعرفه فى اتبهار ، وتقص عليه نبوءة (دافى) ، دون أن تنطرق إلى تفاصيل علاقة ابنتها بالمدعو (بلونسكى) ..

وتبهر الكل بالقصة ، وراحوا يتطلعون إلى (دافى) بشغف حذر ، والشباب يستنكر تماماً كل هذا ، ويؤكد فى إصرار أنه لا يمتلك أية مواهب ، وأنه لا يذكر شيئاً عن الأمر كله ..

فى حفل راقص ، فى نهاية الأسبوع ، وبينما الكل يلهون ويمرحون ، توقف (دافى) فجأة ، وشرد بصره على نفس النحو العجيب ، وبدا لحظة وكأنه يتطنّع عبر الجدار ، إلى هدف خفى ، وهو يقول :

- يا للخسارة ! لماذا ينكسر محراث جميل كهذا ؟ لماذا ؟

وكم بدت عبارته غامضة عجيبة لكل ..

فالمحاريث الموحودة بالمزرعة كلها جديدة ، أو تم تجديدها وإصلاحها ، من قبل الشركة المسؤولة ، التي منحتهم ضماناً لمدة عام كامل !!

كيف يمكن إذن أن ينكسر محراث منها ؟!

المهم أن (دافى) ظل على شروده هذا لبضع دقائق أخرى على الرغم من التفاف الكل حوله ، ومن عشرات الأسئلة التي يلقونها عليه ، حتى انتفض فجأة ، وتطلع إليهم فى شيء من الذعر والذهول ، وهو يتسائل ، لماذا يحيطون به ، ويحذقون فيه ، على هذا النحو العجيب ؟!

وكما حدث فى المرة السابقة ، أنكر (دافى) تماماً ما حدث ، واستكره ، وأكد أنه لا يذكر حرف واحداً منه ولكنه لم يفقد الوعي هذه المرة ..

ولا للحظة واحدة ..

ولأن الأمر قد أثار الكثر ، اتبرى فريق من الشباب يفحص كل المحاريث الموجودة بالمزرعة ، طوال ثلاث ساعات كاملة ، قبل أن يعلنوا أنها كلها سليمة تماماً ..

وكان (دافى) أول من تنفس الصعداء ، وشكر الله على أن ما قاله لا أساس له من الصحة ..

ونام الكل وهم يشعرون بالارتياح والاطمئنان ، ويسخرون فى أعماقهم من (دافى) ، ومن نبوءاته العجيبة .. ولكن ظهر اليوم التالى حمل لهم مفاجأة مدهشة ..

فجأة ، وبينما يعمل فى كفاءة ، انكسر المحراث الرئيسى ، دون أى سبب منطقى لهذا ..

ومنذ تلك اللحظة ، تحول (دافى كرينهال) ، من عامل مزرعة بسيط إلى أسطورة ، يتحدث عنها المهاجرون الجدد ، ليس فى المزرعة فحسب ، ولكن فى المنطقة كلها .. ولم يمض أسبوع واحد ، حتى بدأت الناس تتوافد من المنطق المجاورة ؛ ليشاهدوا تلك العراف المدهش ، ويسمعوا قصص تنبؤاته العجيبة ..

ولكن (دافى) ظل ينكر هذا ويستكره ، ويتولى عن القلمين فى خجل وخوف ، ويصر على أنه لا يدري شيئاً عن تلك الموهبة المزعومة ، التي ينسبونها إليه ..

والعجيب أن إنكاره هذا لم يزد الناس سوى انبهار ولهفة وتهافت ، خاصة وأن تلك الحالة المدهشة قد انتابته مرتين أو ثلاث ، فى حضور العديد من القادمين ، وألقى خلالها نبوءة جديدة ، أو ذكر لأحد الحاضرين جزءاً من ماضيه ، الذى بذل جهداً لاخفائه ، بحيث لم يعد يعلمه سواه ..

وكان من الطبيعي ، والحال هكذا ، أن تتجاوز شهرة الشاب حدود معسكرات العمل البسيطة تلك ، وأن تقفز إلى أرض أكثر صلاحية ..

وذاث يوم ، وبون إعداد وإعلام مسبق ، فوجئ (دافى) بزفر من ذوى السترات الرسمية ، يصل إلى المزرعة ، ويطلب مقابلته شخصياً ..

وفى اتكماش وخوف ، ذهب (دافى) للقاء ذلك الزائر الرسمي ، الذى تأمله فى برود ، قبل أن يسأله :

- أنت (دافى كرينهال) ؟

لوماً للشاب التحيل الرث براسه إيجاناً ، فعال لرجل نحوه ، وبدت نظراته صارمة حادة ، وهو يسأل :

- أصحيح ما يذكرونه عن موهبتك الفذة فى التنبؤ ؟

استنكر (دافى) هذا فى شدة ، وراح يلوح بكفيه فى توتر ، وهو يؤكد أن هذا مجرد شائعة ، و

وبمنتهى الصرامة ، اعتكّل صاحب السترة الرسمية ، قهلاً :

- استعد يا هذا ، فستأتى معى -

مسأله الشاب بصوت مرتجف :

- إلى أين ؟

شدّ للرجل قامته فى اعتداد ، مجيباً فى صرامة :

- إلى (تل أبيب) .

وكتت مفاجأة .. مذهلة !

٣- ليلة الجنرالات ..

لم تكد أجهزة الاتصال اللاسلكى ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، تلتقط تلك الرسالة المشفرة ، التى وصلت فى منتصف النهار ، على غير المألوف ، حتى تم تسليمها فوراً إلى قسم الشفرة ، الذى احتجزها سبع دقائق فحسب لترجمتها ، قبل أن يرسلها فى مظروف مغلق مختوم إلى رجل المخابرات (أمجد) ، الذى استقبلها فى اهتمام واضح ، وفضّ المظروف فى سرعة ، والتهم كلماتها بعينه فى لحظات ، قبل أن ترسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- خطوتنا الأولى نجحت يا سيادة .

هـب زميله (سليمان) من مقعده فى لهفة ، يسأله :

- حقاً ؟!

نوح (أمجد) بالرسالة ، هاتفاً فى ظفر :

- لقد استدعوه إلى (تل أبيب) .

تألفت عينا زميلهما (ويليام) ، وهو يقول برصقته المعتادة :

- عظيم .

التقط (سليمان) الرسالة من يد (أمجد) ، وراح يلتهم كلماتها القليلة بدوره ، فى حين هزّ (ويليام) رأسه ، قائلاً :

- كنت أخشى ألا يحدث هذا قط .

جلس (أمجد) فى هدوء ، على أقرب مقعد إليه ، وقال :

- كل شيء محسوب بمنتهى الدقة يا رجل .. شبكة المعلومات ، التى أحطنا بها (أشرف) ، وزملاءه فى ذلك (الكيوبتر) ، جشمتنا جهداً رهيباً ، ولكن من الطبيعى أن تؤتى ثمارها .

أعاد إليه (سليمان) الرسالة ، وهو يقول فى حماس :

- الخطوة الأولى كانت عبقرية بحق .. أراهن أن (راشيل) وأمها ستتحولان إلى أكبر أبواب الدعاية لرجلنا ، بعدما بهرهما بقصة (يارون بلونسكى) المزعومة هذه .

نوح (أمجد) بصبايته فى الهواء ، قائلاً :

- رويدك يا صديقى .. قصة (يارون) ليست مزعومة .. كنت تعلم كيف حصلنا عليها من (العراق) ، وكم بذلنا من جهد ، حتى عثرنا على (يارون) فى (روما) ، وأنقضاه بأننا أقارب (راشيل) ، ونسعى للقصاص منه .

هزّ (سليمان) رأسه قائلاً :

- وكيف نسي رعبه وذعره وتهيلاره ، وهو يوقع الشيك ،
ويكتب الاعتذار على ظهره ، ثم يطلق سائقه للرياح ، غير
مصدق أنه قد نجا منا .

وصمت لحظة ، قبل أن يهزّ رأسه مرة ثنية ، مستطرداً :
- لست أظنه يجازف بالظهور مرة أخرى ، بعد أن فقد
كل هذا .

غمغم (أمجد) :

- بالتأكيد .

اعتدل (وليام) في مقعده ، قائلاً :

- ولكن فكرة زرع عميلين في آن واحد ، كانت مبادرة
جريئة أكثر من اللازم يا (أمجد) .

هزّ (أمجد) كتفيه ، قائلاً :

- من كان سيكسر المحراث في قلب الليل ، ويبلغنا بتطور
الأمر في وضوح النهار إذن .

قالها ، والتقط نفماً عميقاً ، وحاول أن يسترخي في
مقعده ، مضيقاً :

- المهم أن المرحلة الأولى من خطتنا قد نجحت ، و (شرف)
في طريقه إلى (تل أبيب) الآن ، دون أية حمية من جانبنا .
وصمت لحظة ، شرد خلالها بصره ، قبل أن يتابع في توتر ،
عجز عن إخفائه :

- لا بد إذن أن يعتمد على نفسه فحسب ، وعلى كل ما علمناه
إياه ، ودرناه عليه ، و

قطعه (سليمان) في حزم :

- وعلى الله (العلّي القدير) .

تنهّد (أمجد) ، مضطرباً :

- ونعم بالله .

ثم عاد بصره يشرد بعيداً ..

وعميماً ..

طوال الطريق ، من تلك (الكويتر) ، وحسّى (تل أبيب) ،
فكمش (دافى) في تلك المقعد الوثير ، داخل السيارة السوداء

الفاخرة ، التي تنطلق على الطريق بسرعة مرتفعة نسبياً ، يقودها شاب قوى ، مفتول العضلات ، يرتدى أيضاً زياً رسمياً ، ولكن برتبة تقل كثيراً عن رتبة ذلك الرسمي ، الذي يجلس إلى جواره ، والذي لم ينبس بحرف واحد طوال الطريق ..

وأخيراً وبعد ساعة أو يزيد ، توقفت السيارة أمام مبنى كبير أبيض ، وقال له الرسمي ، فى شيء من الصرامة :
- انزل .

غادر السيارة فى استسلام ، يتناسب مع الصف البلى على وجهه وجسده ، وتبع صاحب السترة الرسمية دون مناقشة ، إلى صالة الانتظار الفاخرة الأنيقة ، فى المبنى الكبير ، وجلس على الكرسي الذى أشار إليه به ، فى صمت مستكين . حتى فوجئ بامرأة ممثلة . تتجه نحوه فى لهفة ، وتسأله فى شغف كبير :

- أنت (كرينهال) ؟ (دافى كرينهال) ؟

نهض فى سرعة ، وبدا مرتبكاً وهو يجيبها فى احترام فتق :

- هو أنا ياسيدتى .

تأتمته المرأة فى اهتمام كبير ، قبل أن ترسم على شفيتها لبسامة جذلة ، وهى تقول :
- تعالما كما يصفونك .

ثم أشارت إلى صاحب السترة الرسمية ، قائلة بلهجة امرأة متعطسة :

- أريده مناسباً لحفل الليلة .

نحنى صاحب السترة الرسمية أمامها ، قللاً فى احترام بالغ :
- بالتأكيد ياسيدتى .

وخلال الساعات التالية . استوعب الشاب الأمر برمته ، وشعر بتبهار ما بعده انبهار : لأن ما يحدث الآن ، هو نفس ما توقعوه فى المخابرات العامة المصرية ، قبل أن يرسلوه إلى (إسرائيل) ، لينهب هذا الدور المعقد ..

فمع زهو النصر وكأليل الغار ، التى ملأت رءوس ونفوس جنرالات (إسرائيل) ، ومع ما ثملوا به من خمر التلّق الإعلامي ، كُن من الطبيعي أن تصاب أعماقهم بالترهل ، وأن ينعكس تلّقتهم على زوجاتهم ..

فالنساء أكثر تثرأ من الرجال بالإعلام والشهرة والأضواء .
وهن على استعداد للقيام بأى شئ فى الوجود ، لإثبات تفوقهن ،
والبقاء على القمة طوال الوقت ..

ومع شهرة (دافى) ونيوع قدراته المدهشة على التنبؤ ،
كان من الطبيعى أن تسعى زوجات المشاهير للاتصال به ،
خاصة وأن السمة الأخرى للنساء ، هى اهتمامهن الزائد
بالغيب والظالم ، ولهفتن غير المنطقية لمعرفة ما سيأتى به
المستقبل ..

ولقد توقع رجل المخابرات المصرى (أمجد) هذا ، كما
لو كان يقرؤه من كتاب واضح مفتوح ..

كل هذا بعث فى أعماق الشاب مزيداً من الثقة والاسترخاء ،
وجعله أكثر هدوءاً ، وهم يحون له لذلك الحفل ، الذى نشرته إليه
زوجة ذلك الجنرال الإسرائيلى الكبير ، الذى ترين صورته صالة
منزله الفاخر الكبير ..

وعندما دقت الساعة تمام التاسعة ، كاد الشاب يستنكر
تلك الصورة ، التى تطل عليه من المرأة الكبيرة ، فى
الحجرة التى وضعوه فيها ، وهو يرتدى حلة سوداء أتيقة ،
نجحت إلى حد ما فى إخفاء نحوله وضعفه ، وإن ضاعفت

من شحوب وجهه ، ومن اتساع عينيه ، حتى بدا أقرب إلى
السقاة ، منه إلى أحد ضيوف الحفل ..

وفى التاسعة وخمس دقائق ، أتى صاحب السترة الرسمية ،
يدعوه لحضور الحفل ، المقام فى بهو المنزل الكبير ..

وبنفس الصمت المستسلم تتبعه الشاب إلى الطابق السفلى ،
وهو يتوقع رؤية حشد من السيدات و

وفجأة ، تسمرت قدماء ، وخفق قلبه فى عنف ..

فألبهوا لم يكن يكتظ بزوجات الجنرالات فحسب ، وإنما
بالجنرالات أنفسهم ..

جنرالات الجيش الإسرائيلى .

٤ - الكبار فقط ..

(أشرف فؤاد الطحان) ، شاب بسيط ، من مواليد (الإسكندرية) ، عام ١٩٤٣ م ، والده مهندس مصري . من أسرة متواضعة ، تشتهرت بالعمل في المواني ، منذ أيام الخديو (إسماعيل) ، حصل بالكاد على بكالوريوس الهندسة ، من جامعة (فؤاد الأول) القاهرة حالي ، بعد أن اقتطعت أسرته من قوتها ونفقاتها ، لتمنح أحد أبنائها شهادة عالية ، ربما تكون السبيل إلى تغيير مسار الأسرة ، وتصيفها الاجتماعى

ولقد بذل (فؤاد الطحان) جهدا خرافيا ، ليحقق لأسرته ما حلمت به وتمنته ، ثم لم يلبث أن انقلب بالاوكرانية (هليج بتروفا) ، ذات الشعر الذهبى ، والعينين الساحرتين ، والتي يصل والدها فى ديوان الحكومة فى (القاهرة) ، فوق فى هواها منذ النظرة الأولى ، وربطت بينهما قصة حب قوية ، سرعان ما توجهها بالزواج ، على الرغم من اعتراض والد (هينج) ، وكان (أشرف) هو ثمرة ذلك الحب القوى العميق

ولكن (فؤاد) لم يكتب له روية أبه قط ، فقد قضى عليه حادث أليم ، قبل مولد ابنه بيوم واحد ، ليخرج الصغير الى

الحياة يتيم ، بلثما ، لا يعرف عن والده أكثر من تلك الصورة ، التى تزين جدار منزله ، والتى اعتاد رؤية أمه تبكى أمامها ، كل حين وآخر ..

وحتى بلغ العشرة من عمره ، كان (أشرف) يقضى الشتاء كله فى كنف أمه وحده السوفيتى ، فى حين يمضى صيفه كله فى رعاية أسرة والده ، التى اشتهت فيه راحة بنها الراحل ، فتمنته بكل الحب والرعاية والحنان ، وغمرته بعطف وعناية الدنيا كلها ، على نحو لم يعهده ولا يعهده قط ، فى بيت أمه .

وكنتيجة حتمية لأرواح المعيشة هذا ، نشأ القصبى وهو وجيد التعايش مع الثقافة والعادات الروسية ، ويتحدثها بلهجة أبناء (أوكرانيا) بطلاقة ، فى نفس الوقت الذى يعيش فيه العادات المصرية البسيطة ، والعامية المصرية الطنقة ..

وفى منتصف طريقه إلى الحادية عشرة ، توفيت أمه فجأة .

وببصرار وعناد ليس لهما مثيل ، قرر جده أن يصطحبه معه إلى (أوكرانيا) ، التى قرر العودة إليها نهائيا ، وبعد أن تغير المجتمع . وبدأ رجال الثورة يبرزون نزعاتهم إلى النظام الاشتراكى ، وتحببوا مبدأ القطاع العام ، وتحالف قوى الشعب العاملة .

ولكن أسيرة (فولاد) وقفت كلها كجدار من الصلب، أمام قرار الجد، وقالت بكل طاقتها، لمنع سفر (أشرف) إلى الاتحاد السوفيتي، فتظاهر الجد بالرضوخ والخضوع، ثم غافل الكل، وحمل حفيده إلى البخرة، فجر اليوم التالي، وألق به إلى (أوكرانيا) ..

وكانت صدمة عنيفة لأسرة لراجل (فولاد الطحان)، ومرارة لم تفارق نفوسهم قط، لسنوات وسنوات ..

المرارة نفسها حفرت خطوطها العميقة في نفس (أشرف) الصغير وملاحه، وهو يحيا في (أوكرانيا) مرغما، مقهورا، حائما بالعودة إلى (مصر)، وإلى بساطتها، وتلقائيتها، ولغتها الجميلة، التي كثيرا ما يتحدث مع نفسه بها، وهو يجلس منفردا، في ليالي (أوكرانيا) الباردة ..

وعلى الرغم من اقترابه من العشرينيات، واختراقه مرحلة المراهقة بأكملها، لم ينجح الشاب في عقد أية صداقات مع أقرانه السوفيت، بل ولم ينجح أبدا في أن يربط قلبه بلوكراتية حسناء، وإنما أثر الانعزال والفردية، وراح جسده يزداد ضعفا ونحولا، على نحو لزج جده وأرقه ويدفعه إلى عرضه على عدد من أطباء الحزب، الذين أكدوا أنه لا يعاني أية أمراض عضوية، وإنما كبنا نفسيا عميقا ..

ثم فجأة، وذلت يوم، استيقظ الجد، ليجد أن حفيده المصري قد اختفى، دون أن يترك خلفه أنى أثر، ولا حتى رسالة توضح أو اعتذار ..

وبعد ثلاثة أشهر، ظهر (أشرف) في الإسكندرية ..

لا أحد يدري كيف نجح في الخروج من الجدار الحديدي، الذي أقامه الاتحاد السوفيتي حوله، ولا كيف تسلل إلى تلك البخرة، واختفى وسط بحارتها ..

ولكنه نجح في العودة إلى مصر ..

عاد وكل نرة في كياته تشعر باللهفة، إلى لقاء أسرته الحقيقية، وإلقاء نفسه وسط النقاء، والحنان، والحب، و

ولكنه لم يكد يبلغ تلك الحى الشعى - حيث ترك أسرة والده آخر مرة - حتى كانت في انتظاره مفاجأة ..

مفاجأة مؤلمة ..

« أنت ذلك الشاب العراف ؟ »

اخترق السؤال قلبه، لينترعه من ذكريقته في عنف، فاعتدل (دافى)، وتطلع إلى صاحبه لحظة، بكل ما يحمله من رتب كبيرة، ونظرة صارمة متشككة، وغمغم :

- اسمي (دافى كرينهال) ياسيدى الجنرال ، لست أرى شيئاً عن كل ما يصفوننى به ، فأنا ...

قاطعه الجنرال بإشارة ضجرة من يده ، قائلاً :

- لا بأس .. لا بأس .. بالنسبة لى ، لست أصدق شيئاً مما يروونه عنك .

هتلت به زوجته ، تلك الممتلئة المتأنقة ، فى حماس كبير :

- انتظر ، وسترى .

مط الجنرال شففيه ، فى غطسة مضجرة ، وهو يشرح وجهه ، قائلاً :

- نعم .. سنرى .

قالها ، وابتعد عن (دافى) فى ازدياد واضح ، فقالت زوجته ، وهى تتأبط ذراع (دافى) ، وتقوده إلى قلب الحفل :

- دعك منه .. تعال .. الكل يرغب فى رؤيتك عن قرب ..

ولم تمض دقائق ، بعد أن قُسمته للكل ، حتى تقسم الحفل إلى فريقين .. فريق الجنرالات ، الذين تكونت منهم دوائر للمحاصرة

والمناقشة ، وفريق من زوجاتهم مع زوجات الضيوف ، واللاتى صنعن دائرة كبيرة ، حول (دافى) ، الذى بدا خجولاً ، مرتبكاً ، يؤكد فى إصرار أنه لا يدري شيئاً عما يصفونه به ، وينسبونه إليه ..

وفى ذهنه ، كان للشلب يسترجع عشرات المعلومات ، التى حفظها عن ظهر قلب ، فى الآونة الأخيرة ، ويسترجع الصور ، والبيانات ، و

وفجأة تجمد جسده ، وشرد بصره ، على نحو توقفت معه كلماتهن ، وانحسرت معه أنفاسهن ، وتمتعت زوجة الجنرال فى انفعال خافت :

- ألم لقل لكن ؟!

لم تنبش إحداهن ببنت شفة ، وكلهن يتطلعن إليه فى لهفة وترقب ..

ثم فجأة ، أدار (دافى) عينيه نحو زوجة السكرتير وزير الصناعة الإسراقيلى ، وقال بصوت عميق مهيب ، وكأنما يتحدث إلى ذلك الشبح الخفى :

- قصة ميراث (بلغاريا) لا أساس لها من الصحة .

امتقع وجه زوجة السكرتير ، وهى تسأله فى شحوب :

- ماذا تعنى ؟!

تجاهل سؤاليها تمامًا ، ولم يحاول إجابتها ، وهو ينطلق ليروى لها العديد من تفاصيل حياتها السابقة ، بكلمات موجزة مقتضبة ، وعلى نحو لئلا تبهار وذهول الجميع ، قبل أن يشير إليها بيده ، مضيقا :

- ولكن زوجك يواجه خطرا كبيرا .. وقريبا .

كادت المرأة تسقط فاقدة الوعي ، مع العبارة الأخيرة ، وتشبثت به ، محاولة معرفة المزيد ، فى هلع وذعر ، إلا أن جسده انتفض كله ، وراح يحدق فيها بدهشة مذعورة ، قبل أن ينكر كعادته كل ما قاله ، ويقسم بأنه لا يذكر حرفا واحدا منه .. وانفض الحفل ، دون أن يضيف (دافى) جديدا ، وقضى ليلته فى حجرة خاصة بخدم المنزل ، فى حين عادت زوجة سكرتير وزير الصناعة إلى منزلها صاحبة منتقعة ، ولم يفض لها جلن طوال الليل ..

وفى للصباح التالى مباشرة ، وصلت إلى النائب العام الإسرائيلي كومة من الأكلية ، حول وقائع فساد ورشوة واستغلال نفوذ ، وانحرفت شتى لسكرتير وزير الصناعة ..

وكانت فضيحة كبرى فى (إسرائيل) ..

وقبلة تفجرت حول (دافى كرينهال) ، الذى فاقته شهرته الأفاق ، وذاع صيت نبوءة الحفل ، فعلا شأنه ، وتحسنت سمعته ..

وفى ليلة وضحاها ، أصبح الشاب يحمل لقب العراف الرسمي للكبار فى (إسرائيل) ..

الكبار فقط ..

ومع شهرة كهذه ، كان من الطبيعى أن تتدخل المخابرات الإسرائيلية ..

وبكل قوتها .

٥ - الذئاب ..

« الإسرائيليون يراجعون ملف (دافى كرينهال) !! »

نطق رجل المخابرات للمصرى (سليمان) بالعبرة، فى لهجة
حملت ما يشعر به من توتر وقتئذ، ولكن ملامح (أمجد) ظلت
جامدة متماسكة، وهو يقول فى حزم:

- امر طبيعى (أشرف) أصبح ضيقاً شبه دائم، فى
كل الحفلات غير الرسمية، التى تضم جنرالات (إسرائيل) وكبار
مسئوليه، ومن غير المعقول ألا تسعى المخابرات الإسرائيلية
إلى التأكد من سلامته أمنياً.

سأله زميله (ويليام) فى حذر:

- ألا تشعر، ولو بقليل من القلق.

صمت (أمجد) طويلاً هذه المرة، وكأما يبدل جهداً لكتمة
ذلك التوتر المستتر فى أعماقه، قبل أن يجيب:

- لقد أدينا واجبنا بقدر استطاعتنا، وبنينا قصارى طاقتنا،
لنؤمن له تغطية سليمة مئة فى المئة .. ولا نتمنى لنا قد
زرعناه فى (أوكرانيا)، قبل أن يهاجر إلى (إسرائيل) بعلم

كامل، والمفترض عندما يراجعون ملفه، أو يتحررون أمره،
أن يتوصلوا إلى ما صنعناه نحن، وليس إلى الحقيقة

ران على ثلاثتهم صمت طويل، قبل أن يخفم (سليمان):

- ولكن، ماذا سيحدث لو أنهم كشفوا أمره؟

صمت (أمجد) بضع لحظات أخرى، قبل أن يجيب فى حزم
وصرامة وانضاب:

- كارثة.

نطقها، وانطلق عقله يستعيد تفاصيل لقائه الأول مع
(أشرف) ..

(أشرف الطحان) ..

العراف ..

عشرات الاحتمالات وضعها الشاب فى رأسه، وهو يهرع
إلى منزل أسرة والده الراحل، وفى ذلك الحى الشعبى فى
(الإسكندرية) ..

احتمالات لرفض عودته ، أو استنكارها ، أو حتى القلق منها ..

احتمالات شتى ، ليس من بينها ما وجدته أمامه بالفعل ..
انهيار ..

منزل أسرة والده تبار ، منذ ما يقرب من عام ، وبفن كل
سكنه تحت أنقاضه ، فيما عدا ابنة عمه (وفاء) ، لتي عانت
من مدرستها ، لتجد أنها قد فقدت عائلتها كلها بضربة
واحدة ..

وحتى هي ، قضت بعض الوقت ، تتنقل بين مساكن أهل الخير
في الحي ، ثم خرجت ذات يوم للبحث عن عمل ، ولم تعد
بعدها أبداً ..

يومها بكى الشاب كثيراً وطويلاً ، وراح ينعى حظه القدر ،
الذي جعله يعود إلى (مصر) ، ليضيع فيها وحيداً غريباً ، دون
قريب أو صديق ..

ولأنه لم يكن يملك قوت يومه ، فقد بدأ الشاب على
الفور عملية البحث عن لقمة العيش ، ولكنه لم يكن يحيد
أية حرفة تعينه عليها ؛ لذا فقد راح يواجه أعاصير الدنيا

وعواصفها بجسده الضئيل الضعيف ، فيصل يوماً أو بضعة
يوم ، وبينه وبين نفسه في البحث أياً ، ثم لا يجد سوى مكان
صغير داخل أحد المساجد ، ليقتضي ليلته حتى الصباح
التالي ، دون أن يلجأ ولو مرة واحدة ، إلى تسول ما
يقتات به ، مهما بلغ جوعه وضعفه ..

حتى كان ذلك اليوم ..

كان يجلس منهكاً ، داخل مسجد سيدنا (الحسين) في
(القاهرة) ، عندما سمع بالمصادفة حديثاً بين سيدتين ، فقدت
إحداهما ابنتها وسط الزحام ، ونسيت في العثور عليه ،
فجاءت تبكي ، وتتأشد (الحسين) التوسط لها لتجده
وتستعيده ، كعادة البسطاء في (مصر) ..

يومها شعر بالشفقة على المرأة ، فربت على كتفها قائلاً :
- وادك سيعود ..

التفتت إليه المرأتان في دهشة ، وفاتهما أنه قد سمع
حولهما ، لتسأله إحداهما في لهفة :

- حقاً يا سيدنا ..

لمح الأمل واللهفة في عيونهما ، وخشى أن يقنعه بإجابة صادقة صريحة ؛ لذا فقد تظاهر بتشرود والغيب الروحاني ، وهو يقول :

- الليلة .. الليلة سيعود ..

خفق قلبا المرأتين في لهفة وانبهر ، وراحتا تصرقاه بالشكر والدعاء ، وتعدانه بكل غال وثمين ، لو تحققت نبوءته ، ثم انصرفتا وقد أعادت إليهما كلماته الأمل ..

كل الأمل ..

أما هو فقد نسي الأمر برمته فور انصرفهما ، وعاد يبحث عن لقمة عيش تسد رمقه ، و

- كارثة !

انتزع هاتف (ويليام) زميله (أمجد) من ذكرياته ، فالتفت إليه بسرعة ، وراه يطلع برقية عاجلة . وهو يكمل في توتر زائد :

- المخابرات الإسرائيلية استدعت (دافى) إلى مقرها في (تل أبيب) ، وسيختبرونه بجهاز كشف الكذب

وانتقد حاجبا (أمجد) في شدة ..

فلقد كان هذا هو الاختبار الذي يقنعه منذ البداية ..

الاختبار الحقيقي ..

كأى شخص بسيط في مثل موقفه ، راح الشاب يرتجف في رعب ، وزاغت نظراته وسط وجهه النحيل ، وهو يقول :

- إننى لم أفعل شيئا .

رمقه ضابط المخابرات الإسرائيلي بنظرة صارمة ، وهو يقول :

- لو أنك لم تفعل شيئا حقاً ، فليس هناك ما تخشاه .

وبشارة من يده ، راح الخبراء يوصلون جسد الشاب بأسلاك وأنابيب جهاز كشف الكذب ، فتطلع إليهم في رعب ، هاتفاً :

- ماذا سيفعلون به ؟!

اجابه ضابط المخابرات الإسرائيلي (رافيف) ، بنفس الصرامة :

- إنه مجرد اختبار .

هتف (دافى) فى ذعره وهو يحنق فى الأسلاك المتصلة بجسده :

- هل .. هل مستكبرون جسدى ؟!

زمجر (رافيف) ، قاتلاً - بلهجة جعلته أقرب إلى الذئاب :

- قلت لك ، أنه مجرد اختبار .

وفى رفق ، ربت أحد الخبراء على كتف الشاب ، قاتلاً :

- اطمئن .. سنلقى عليك بضعة أسئلة فحسب . وهذا الجهاز سيقبس ردود أفعالك .

سأله الشاب فى ذعره :

- لماذا ؟!

زمجر (رافيف) مرة أخرى ، قاتلاً :

- لتعلم ما إذا كنت صادقاً أم كاذباً .

هتف الشاب فى سرعة :

- أنا لم أكذب .

قال للخبير بالتمسكة ودود :

- ليس هناك ما تخشاه إذن .

قلها ، وتراجع بعد أن وصل الجهاز بجسده جيداً ، واستدار يشير إلى ضابط المخابرات الإسرائيلى ، الذى أشار إليه بدوره ، ليبدأ الاختبار ..

وكما يحدث دوماً ، بدأ الخبراء يلقون على الشاب أسئلة عادية بسيطة ، وهو يجيب أسئلتهم فى حذر قلق ، والجهاز يسجل كل ما يصدر عنه ، والخبراء يرصدون الإشارات والمتحنيات ، و ...

وفجأة ! اعتدل كبير الخبراء ، وسأله فى حزم :

- (دافى كرينهل) .. هل تعمل لحساب المخابرات المصرية ؟!

وخيل للشاب أن كل شيء فى الحجرة قد توقف بفتة .. حتى قلبه .

٦ - الطريق الصعب ..

« بركاتك يا سيدنا .. »

فوجئ الشاب بالصيحة الهادرة . التي تحمل كل فرح الدنيا . وهو يجلس داخل مسجد (الحسين) . مرتكناً بظهره إلى الجدار . ومعه تن ألم من فرط الجوع . وتشرك جسده تلك الإرهاق . الذي صر جزءاً من تكوينه . هوش من مكانه مذعوراً . وتساءل في نوتر :

- ماذا هناك ؟

هجمت عليه امرأتان . التتان رأهم صباح أمس . وهويتا على كفيه بالقبلات . وانطلقت منهما الزغريد . على نحو أدهشه وأربكه . قبل أن تفاجئه إحداهما بدس حفة من أوراق النقد في يده . وهي تبكي في سعادة . هاتفة :

- ابني علا يا سيدنا علا ليلة أمس كما أثبتنا .. بركاتك يا سيدنا .. بركاتك ..

مع الضجة التي أحدثتها . التفت رواد المسجد حولهما . وحول الشاب . الذي أجمت المفجأة والدهشة لسانه . ومنعه

الخجل من الاعتراف بالحقيقة . كما منعه الجوع من إعادة النقود إلى المرأة . فدنسها في جيبه . وهو يتصنع الوقار . قائلاً :

- إنها إرادة الله .. إنها إرادة الله .

كلماته القليلة . مع شحوبه ونحوه . جعلت الكل يتحدث عن كراماته الوهمية . ودفع البعض إلى التقرب منه . إلا أنه لم يلبث أن قسل من بينهم . وتسأل خرج المسجد . وهرع بكل جوعه ولهفته إلى قرب مسط . ليملا معدته بكل ما لذ وطلب . ويسكت صرخات جوعها . التي طالت أكثر مما ينبغي ..

وبعد أن امتلأت معدته . وراح يزودها بكوب من الشاي الساخن . على مقهى قريب . سمع من خلفه صوتاً يقول في هدوء :

- كانت لعبة بارعة يا هذا .

ابتسم . دون أن يلتفت إلى صاحب الصوت . وأسهل جفنيه في تراج . قائلاً :

- أنا لم أفعل شيئاً . الناس هي التي تصوّرت ما أرادت أن تُصدقته وما تميل إلى تصديقه .. صدقتي .. كل مخلوق .

مهما بلغت ثقافته أو مكانته ، يمكن أن ينبهر ، إذا ما تعلّق الأمر بمستقبله .

غمغم الجالس خلفه ، فى صوت يوحى بالتفكير العميق :

حقًا !

ومضت لحظات من الصمت ، قبل أن يستطرد :

- هل تعلم أنك قد زرعت فى رأسى فكرة . فكرة مبتكرة جدًا .

شعر (أشرف) بشيء من الرهبة والمهابة ، مع تلك الصوت العميق الرصين ، فاستدار إلى صاحبه ، الذى يجلس خلفه مباشرة ، ولكنه وجده قد نهض ، وغادر مقعده ، وابتعد ليختفى وسط الزحام ..

كل ما لمحّه هو ظهره ، وجزء من مؤخرة رأسه فحسب ، ثم لم يهتم حتى يتتبعه ، ولو ببصره ، فقد تصوّر أنه مجرد عابر سبيل ، وأنه لن يلتقى به مرة ثانية أبدًا .. ولكنه كان مخطئًا فى تصوّره هذا ..

مخطئ تمامًا .

- « هل تعمل لحساب المخابرات المصرية ؟! »

كرّر خبير جهاز كشف الكذب سؤاله ، عندما طال صمت (دافى) ، فرفع هذا الأخير رأسه وعينه إليه ، واستعدّ جسده فى لحظة واحدة كل ما تعلمه ، وما تدرب عليه فى المخابرات العلمية المصرية ..

ولثوانٍ أخرى ، لم ينس ببنت شفة ..

لقد استفاد كل إرادته ، واستخدمها للسيطرة على أعصابه ومشاعره ، كما علمه (أمجد) ، ودفّع كيته كله إلى عالم آخر وهمى ، وهو يجيب بكل الثقة :

- كلاً .

لم يكده ينطقها ، حتى تعلّقت أبصار ومشاعر الكل بمؤشرات جهاز كشف الكذب ، فى انتظار ما ستعلن عنه .

ولكن النتيجة جاءت مدهشة ..

مدهشة بحق ..

راجع الجنرال الإسرائيلى (كوهين) تلك التقرير ، الذى قُّمه إليه رجل (الموسلا) (رافيف) ، قبل أن يمتدّ شفّتيه ، ويهزّ رأسه ، ويقول لهذا الأخير :

- إذن فالتناجج كلها سلبية ، وذلك المزارع لا غبار عليه .

أجابه (رالف) فى حزم :

- بالتأكيد يا جنرال . لقد أشرفت على الاختبار بنفسى ، ولو أردت رأى فذلك الشاب (دافى) أقل شأنًا من أن يكون جاسوسًا بارعًا كما شككنا ، ثم إن اجتياز اختبار جهاز كشف الكذب ليس بالأمر السهل ، فالمرء إما أن يكون صادقًا ، أو عبقريًا إلى حد مذهل .

ثم أطلق ضحكة ساخرة ، قبل أن يضيف :

- وهو ليس عبقريًا بالتأكيد .

وافقه الجنرال (كوهين) بإشارة من يده ، وإيماءة من رأسه ، وقال :

- هذا ما توقعته بالضبط ، ولكن الحذر أفضل من الوقوع فى الخطأ .. أليس كذلك ؟!

أجابه (رالف) فى سرعة :

- بالتأكيد يا جنرال .. بالتأكيد .

صمت الجنرال (كوهين) لحظة أخرى ، وهو يلقي نظرة أخيرة على التقرير ، قبل أن يلقيه جانبًا ، ويقول فى صرامة :

- هاته إلى هنا . أريد أن ألتقى به . وحدنا .

لم تمض دقائق على قوله هذا ، حتى كان (دافى) يجلس قبالة ، بجسده الضئيل النحيل ، فنهض جنرال ضخمة الجثة ، وراح يدور حوله ، ويرمقه بنظرات صارمة قاسية حادة ، جعلت الشاب يشعر بقلق عارم ، ويتساءل عن مصيره .. ولكن فجأة !

توقف الجنرال (كوهين) ، ومال نحوه ، وسأله بلهجة ذهبت صرامتها ، ولكتست بالكثير من اللهفة والشفقة :

- قل لى ، هل سأحصل قريبًا على منصب رئيس الأركان ؟!

وبالكاد ، أخفى الشاب تلك الابتسامة الظاهرة ، التى قاتلت لتثب إلى شففيه ووجهه ..

فالآن .. والآن فقط ، أدرك أنه قد اجتاز حاجز الخطر ، وعبر الطريق الصعب ..

وبكل نجاح ..

بعد اجتياز (دافى) لاختبار جهاز كشف الكذب بنجاح ، أزيلت كل الحواجز بينه وبين مجتمع الجنرالات فى

(إسرائيل) ، وأصبح ضيفاً رسمياً في كل حفلاته واجتماعاته ،
وذاعت شهرته في (تل أبيب) كلها ، ثم في (إسرائيل) من
أقصاها إلى أقصاها في المرحلة التالية ..

ولأن المجتمع الإسرائيلي لا يقتصر على الجنرالات
فحسب ، فقد بدأ (دافى) يتسلل إلى حفلات السياسيين ،
والاقتصاديين ، وحتى رجال الدين اليهودى وحاخاماتهم .

وعلى الرغم من كل ما أحيط به ، من الاهتمام والأبهة
والفخفة ، لم يتغير (دافى كرينهال) قط ، وبما قل كما هو ،
ضئيلاً ، نحيلاً ، شاحباً ، صامتاً ، بسيطاً ، مستكيناً ، على
نحو اعتاده الكل ، واعتادوا تجاهله ، وعدم الاهتمام بوجوده ،
وهم يناقشون مشكلاتهم ، وأسرارهم ، حتى السياسية والعسكرية
منها ..

الشيء الذى لم يدركه أحد منهم ، هو أن (دافى) كان
يتميز بلذنين كبيرتين ، وذاكرة مدهشة ، جعلته قادراً على
اختزان كل ما سمعه من أخبار وأسرار ، حتى يفرغه كله
في جعبة عميل مصرى آخر ، يتولى نقله إلى الرجال في
(القاهرة) ..

وهناك ، كان (أمجد) يتلقى كل ما يرسله (دافى) ، ويشعر
بالارتياح لأن خطته قد آتت ثمارها ، و

ولكن فجأة ، وصل ذلك الخبر ، من (إسرائيل) ..

خبر خطير ..

للغاية .

٧- الزائر ..

قفزت فكرة العملية كلها إلى رأس رجل المخابرات (أمجد) ، وهو يجلس على ذلك المقهى البسيط في ساحة مسجد (الحسين) في (القاهرة) ..

في البداية ، بدت كفكرة مجنونة ، تصلح لعملية نصب كبرى ، ولكنها لا تلعب جهاز مخابرات كفاء ، مثل جهاز المخابرات العامة المصرية ..

ولكن تلك الفكرة المجنونة راحت تتبلور في ذهنه رويداً رويداً ، وتتطور ، وتبدو أكثر عقلانية وحادثة .. بل وعبرية أيضاً ، حتى جاءت لحظة أصبحت في ذهنه منطقية تماماً ، ولكنها تحتاج إلى جهد حقيقي لتنفيذها ..

ولسبب ما ، تعقدت الفكرة في ذهنه بصاحبها ، فراح يجمع المعلومات عن (أشرف) ، ويتحرى ماضيه وماضى أسرته بدقة مذهلة ، وقد بدا له ، بشحوبه ونحوه ، وتمثيله الفطري البسيط ، مناسباً جداً للدور الذي اخترعه في خطته ..

وذات ليلة ، وفي اجتماع طلب عقده شخصياً ، طرح الفكرة كلها على رفاقه في جهاز المخابرات ، وطرح معها تحريكه عن (أشرف) ..

ولقد بدت الفكرة لكل مجنونة بالفعل ، إلا أن هذا الجنون نفسه لم يلبث أن جذب انتباههم وعقولهم ، فراحوا يناقشون كل التفاصيل ، حتى إن الاجتماع قد امتد بهم إلى ساعات الصباح الأولى ، قبل أن يتخذوا قرارهم بوضع الفكرة موضع التنفيذ ..

وهنا بدأ (أمجد) اتصاله بالمرشح الأول لتنفيذها (أشرف الطحان) ..

وبن لدخول في تفاصيل طويلة ، يكفى أن نقول إن (أمجد) قد وجد في (أشرف) خامة طيبة ، واستعداداً فطرياً ، ساعده على صقله ، وترويضه ، وتأهيله للمهمة التي أعده لها ..

في البداية التقى به في مسجد (الحسين) ، وعرض عليه عملاً جيداً ، براتب كاف فقبل (أشرف) العرض على الفور ، قائلاً :

- أي عمل أفضل من تسول لقمة العيش ، والاحتياج على البسطاء ..

ولم يعلق (أمجد) على عبارته ، حتى حملتهما سيارته بعيداً ، وسأله (أشرف) في اهتمام :

- وما طبيعة العمل لديك بالضبط ؟!

ابتسم (أمجد) ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

- نفس ما تقوم به الآن ، ولكن على نحو أكثر تنظيماً ..
ولاحتراماً .

سرى القلق في نفس (أشرف) ، وهو يسأله :

- نفس ما أقوم به ! وما الذي أقوم به بالضبط ؟!

أجابه (أمجد) في حزم صارم :

- الاحتيال .

شهق (أشرف) في ذعر ، وصاح بكل استنكار الدنيا :

- الاحتيال ! هل ستستأجرتني للاحتيال على البسطاء
والمسكين ؟!

أجابه (أمجد) بنفس الحزم والصرامة ، وهو يميل بسيارته
إلى جانب الطريق :

- ستلعب دور المحتال النكبي يا (أشرف) ، ولكن ليس
على البسطاء ، وإنما على الثناب .

بُهِت (أشرف) بالجواب ، فكرر بدهشة قلقة :

- الثناب !

وهنا ضغط (أمجد) فرامل سيارته ، وأوقفها
جانباً ، ثم التفت بتطلع إلى عيني (أشرف) مباشرة ،
قائلاً :

- أنا ضابط في المخابرات العامة المصرية يا (أشرف) .

اتسعت عينا (أشرف) ، وهو يحدق فيه دون أن ينبس
ببنت شفة ، فتابع بمنتهى الحزم :

- (مصر) بحاجة إلى تعاونك يا (أشرف) .

وبتلقائية مذهشة ، وفطرة وطنية مخلصه . هتف
(أشرف) :

- وأنا رهن إشارتها .

وكتبت هذه هي البداية ..

- « مفاجأة جديدة من (تل أبيب) ! »

هتف (سليمان) بالعجالة . وهو يندفع إلى حجرة مكتب
(أمجد) ، الذي رفع عينيه إليه في قلق ، متسائلاً :

- ماذا حدث هذه المرة ؟!

مال نحوه ، مُجيباً في انفعال :

- الليلة سيحضر (دافى كرينهال) ، بصحبة الجنرال
(كوهين) ، حفل استقبال وفد سوفيتى اقتصادى خاص ،
يزور (إسرائيل) لأول مرة .

سأله (أمجد) فى حذر :

- وماذا فى هذا ؟!

لوح (سليمان) بيده مجيباً :

- هل تعلم من يرأس تلك الوفد ؟!

ثم مال نحوه أكثر ، وأضاف ، دون أن ينتظر جواباً :

- (أليكس بتروفا) .. جد (أشرف) .

واتسعت عينا (أمجد) عن آخرهما ..

* * *

لم يدر (دافى) لماذا شعر بقلق زائد ، فى تلك الليلة
بالذات ، وهو يستعد لحضور حفل استقبال الوفد السوفيتى
المحدود !!

كان بالنسبة إليه مجرد حفل ، عليه أن يحضره برفقة
أحد الجنرالات ، كما لو كان مجرد حيوان أليف ، يصطحبه
صاحبه ليزهو به ، فى كل لقاءاته واجتماعاته ، وعليه أن
يلعب فيه دوره المعتاد ، مستخدماً معلومة جديدة ، من تلك
المعلومات التى تزوده بها المخابرات المصرية ، كل حين
وآخر .

فى البداية ، كانت تلك المعلومات تدهشه شخصياً ، وكان
يتساءل ، كيف تتمكن المخابرات المصرية من الحصول عليها
بهذه الكفاءة ؟!

ولكنه ، ومع مرور الوقت ، اعتاد هذا الأمر ، وألقى دهشته
واتبهاره جانباً ، مكثفياً بأداء دور العراف كما ينبغى ..

لاشئ جديد ..

فلماذا يشعر بكل هذا القلق الليلة إذن ؟!

ظل هذا الخاطر يلح على ذهنه في إصرار ، حتى انتزعته منه بغتة طرقات منتظمة . على باب حجرته الصغيرة ، بإيقاع يحفظه عن ظهر قلب ، فأسرع إلى الباب ، وفتح قائلًا في لهفة :

- هل من جديد ؟

دلف أحد سقاة الحفل إلى الحجرة في سرعة ، وقال في توتر :

- أحمل إليك رسالة عاجلة من (القاهرة) .

كانت أول مرة منذ بدأت مهمته ، ترسل فيها (القاهرة) إليه رسالة عاجلة ، إلى الحد الذي يستدعي تجاوز إجراءات الحذر والأمن التقليدي . وإبلاغه بها على هذا النحو ؛ لذا فقد اختطف البرقية المشفرة من يد الرجل في لهفة ، وفضنها في سرعة ، وأتست عيناه في ارتباك ، وعقله يترجم كلماتها القليلة إلى جملة واحدة محدودة :

- « جديك ضيف بالحفل .. »

حتى في البرقية طويلاً ، غير مُصنق ما استوعبه منها ، ثم لم يلبث أن دسها في جيبه ، وهو يقول للرجل في عصبية :

- من المحتم ألا أحضر هذا الحفل .

بُهِت الرجل ، وهو يتسائل :

- ولكن كيف ؟

أمسك قراعيه في قوة ، قائلًا :

- بآية وسيلة .. بآية حجة .. أخبرهم أنني مريض ، لو فقد الوعي ، أو ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع صوت طرقة قوية على باب حجرته ، مصحوبًا بصوت الجنرال (كوهين) الجهوري ، وهو يهتف :

- افتح يا (دافى) .

أشار (دافى) إلى الساقى ، قائلًا بلهجة حازمة امرءة ، لا تتناسب مع ضالة جسده :

- أنت هنا لأننى استدعيتك لإسعافى من دوار مفاجئ ..

هل تفهم ؟!

أوما الرجل برأسه إيجاب . فأسرع (دافى) بفتح الباب
للجنرال ، و ...

وتجمعت كل قرة فى كياته ..

هذا لأن الجنرال لم يكن وحده . وإنما كان بصحبة آخر
شخص .. يتمنى (دافى) رؤيته . فى تلك اللحظة . وفى مثل
هذه الظروف ..

جده .

٨ - الحفيظ ..

لشوان نظر (دافى) جامداً ، يحدق فى جده (أليكس بتروفا) ،
الذى يقف على بعد سنتيمترات منه . قبل أن يقول الجنرال
(كوهين) فى مرج غليظ :

- ضيقنا لا يصدق شيئاً مما يسمعه عنك يا (دافى) .

حاول (دافى) أن ينطق شيئاً ، إلا أن الكلمات احتبست فى
حلقه . وهو يتطلع إلى جده ، الذى ظلت ملامحه جامدة باردة
كعائنه . حتى فهقه الجنرال ضاحكاً . وهو يربط على ظهرهما
معاً ، قائلاً :

- ماذا أصابكما ؟!

كان ارتباك (دافى) حقيقياً ، وهو يقول :

- لوقع قننى .. قننى لم توقع زائراً غريباً ياسيدى الجنرال .

فهقه الجنرال مرة أخرى ، وكأنما يروقه ضعف (دافى)
وارتباكه ، واستدار إلى ضيفه السوفيتى ، قائلاً بالإنجليزية :

- نسيت أن أخبرك أن (دافى) خجول للغاية ياسيدى
(بتروفا) .

وهنا .. هنا فقط ، انفرجت شفتا الجد ، ليقول فى هدوء عجيب :
- هذا يبدو واضحاً .

ثم امتدت يده لتصافح (دافى) وهو يقول بالروسية :
- لا يمكنك أن تتصور كم تسعنى رؤيتك .

ارتجفت أصابع (دافى) فى يد جده ، وحارت عيناه ، وهما تتطلعان إلى عيني هذا الأخير ، وعقله يتساعل فى توتر :
- أمن الممكن ألا يتعرفه جده ؟!

هذا مستحيل ! مستحيل تماماً !

ولكن الجد صافحه فى برود ، وعلى نحو يوحى باللامبالاة ،
ثم استدار إلى الجنرال ، قائلاً :
- إنه كما وصفته تماماً يا جنرال .

ابتسم الجنرال فى زهو ، كما لو أن أحداً قد أنشئ على قطه الأليف الأخير ، ثم أشار بيده ، قائلاً :
- هيا يا (دافى) .. سألنك إلى عدد جديد من الأصدقاء .

لوماً (دافى) برأسه إيجاباً فى استسلام ، وتبعهما فى صمت إلى الحقل ، الذى بدا له صاحباً أكثر من المعتاد ، فى حين بدا هو لكل صاحباً ممتنعاً ، شاردًا أكثر من المعتاد ..

وعلى الرغم من أن المخابرات المصرية قد زوّنته ببعض المعلومات المهمة ، التى تصلح للعب دور العراف الليلة ، إلا أنه لم يجد فى نفسه أنى ميل لهذا ، لذا فقد انتهز تشغل الكل فى تناول طعام العشاء ، وتسلل إلى الشرفة ، وراح يملأ صدره بالهواء البارد ، فى محاولة لتهدئة أعصابه النائرة ..

- « لقد أسعفتى رؤيتك بحق .. »

فقر من مكانه ، عندما اتبعت الصوت الرصين من خلفه فجأة ، واستدار إلى صاحبه فى سرعة ، ووقع بصره على جده ، الذى تقدم نحوه ، قائلاً فى خفوت ، بحيث لا يسمعه سواه :

- إنك لم تحاول الاتصال بى قط منذ فرارك من (لوكراتيا) .

حدثني (دافى) فى وجهه لحظة بدهشة مذعورة ، قبل أن ترتجف شفاته ، وهو يهمهم :
- إنى فقد تعرفتني .

ارتسمت ابتسامة حنان على شفتي الجد ، وهو يقول :

- وهل يمكن أن أسمى حفيدى الوحيد ؟!

لوح بيده فى انفعال ، وجد سبيله إلى صوته ، وهو يهتف فى خفوت :
- ولكنك لم ..

قاطعته جده بإشارة من يده ، وقال فى حنان :

- لقد أدركت فوراً أنك تخفى هويتك الحقيقية لسبب ما ، وكان من المستحيل أن أكون أنا سبب كشف أمرك .

حدثني (دافى) فى وجهه مرة أخرى ، قبل أن يهمهم :

- ينبغي أن تعلم أن ..

قاطعته جده مرة أخرى ، واكتسعت ابتسامته بحنان جارف ، وهو يهمهم بنوره :

- لا أريد أن أعلم شيئاً .. أنت شخص ناضج . افعل ما يحلو لك ، وثق أن سرى لن ينكشف قط .. ليس عن طريقى ، مهما كانت الأسباب ، ومهما ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع من خلفهما صوت الجنرال (كوهين) ، وهو يهتف :

- آه .. لئنما معاً إنى !

استدارا إليه فى آن واحد ، وظل وجه (دافى) على شحوبه ، فى حين ارتسمت على شفتي الجد ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- كنت أتحدث معه بعض الوقت .

هتف الجنرال :

- كاتب .

ثم عاد يتسّم فى خبث ، وهو يتقدّم منهما ، مستدركاً :

- اعترف أنك كنت تأمل أن يخبرك بواحدة من نبوءاته .

أطلق الجد ضحكة قصيرة ، قائلاً :

- ربما كان هذا صحيحاً .

لم يكذب ولم يمتدح عهده ، حتى قبض (دافى) بكفه على كتفه فجأة .
على نحو جعل الروس يلتفت إليه فى دهشة . فرآه زافع البصر
شارده ، وهو يقول بالروسية :

- يبدو أنك مستعيد حفيدك ، فى القريب العاجل .

هتف الجنرال (كوهين) فى انبهار :

- ماذا قال لك ؟ هـ .. بم تنبأ ؟!

ابتسم الجد اهتماماً كبيراً ، منحها كلها لحفيده ، قبل
أن يلتفت إلى الجنرال ، ويقول فى هدوء ، لم يخل من
السعادة :

- تنبأ بما أتمنى تحقيقه يا جنرال .

هتف الجنرال فى حماس :

- اطمئن يا رجل .. كل نبوءاته تتحقق .

غمغم الجد :

- أتعلم هذا .

وألقي نظرة على حفيده ، قبل أن يتجه فى خطوات كبيرة
سريعة إلى الحفل فى الداخل ، فلوح الجنرال بسبابتيه فى وجه
(دافى) ، وقال :

- أرجو ألا تكون هذه هى نبوءتك الوحيدة الليلة .

ولكن (دافى) لم يجب ..

لقد ظل شارداً ..

وبحق هذه المرة ..

تطور أداء الشاب كثيراً ، بعد هذه الواقعة ، ولعدة أشهر
تالية ، وتوطدت صلته بالجنرالات ، وكبار المسؤولين ، ورجال
المجتمع والسياسة فى (إسراييل) ، وراح الكل يتنافس على
استضافته ، حتى إنه خلال ثلاثة أعوام كاملة ، قضاهما فى
(تل أبيب) ، لم يكن له سكن مستقل قط .

وفى (القاهرة) ، كان هناك فريق كامل من الرجال ،
يصل عبر شبكة من الصلاء ، فى كل مكان فى

(إسرائيل) ، لتزويده بالمعلومات ، التي تجعل تنبوءاته
المرعومة أكثر دقة وتأثيراً ..

وعلى قدر ما يجشمهم هذا من وقت وجهد ومال ، كانت
المعلومات الغزيرة ، التي يحصل عليها الشباب ، من اختلاطه
بالكبار ، تساوى كل هذا وأكثر . وتدفعهم إلى بذل المزيد ،
دون كلل أو ملل ..

وحتى لا يتحول للشباب إلى (موضة) قديمة ، يملها للكبار ،
ويسعون للبحث عن غيره ، عمل الرجال على أن يفجر كل
عدة أشهر ، قضية ضخمة ، من خلال نبوءة مزعومة ،
يلقيها وسط جمع من المشاهير ، ليشتعل المجتمع الإسرائيلي
كله بعض الوقت ، ويعود كل فترة وأخرى إلى بؤرة
الضوء ..

أما الشباب نفسه ، فقد بدأ يشعر بالإرهاق والملل والإجهاد ،
بعد أن ظن يلعب الدور نفسه لثلاث سنوات متواصلة ، من
نهايت ١٩٦٨م ، وحتى أواخر ١٩٧١م ، وبدأ يرجو (القاهرة)
أن تعفيه من مهمته هذه ، وأن تسمح له بالعودة إلى الوطن ،
والاستقرار هناك ..

ومع إلحاحه المستمر ، قرّرت (القاهرة) أن تخطو
خطوة جديدة ..

خطوة حاسمة ..

وجريئة .. للغاية .

٩- الرحلة ..

« ما رأيك في رحلة سياحية مجانية إلى (قهرص) ؟! »

ارتسمت ابتسامة واسعة كبيرة على شفطي الجنرال (كوهين) ، وهو يلقي السؤال على الشاب ، الذي بدت عليه دهشة حقيقية ، وهو يسأل :

- وما المناسبة ؟!

ضحك الجنرال (كوهين) ، وهو يقول :

- لي صديق يمتلك (ماجى تورز) للسياسة ، وهو يقول :

- إن وجودك وسط الرحلة ، سيجلب له زبائن عديدين .

فغر الشاب فاه في دهشة كبيرة ، وهو يحدق في وجه الجنرال (كوهين) ، وعقله يستعيد تفاصيل البرقية ، التى وصلتته من (القاهرة) ، منذ ساعة واحدة ، والتى يحددون له فيها موعدًا للقاء أحد رجال المخابرات المصرية فى (قهرص) ، فى لوقل الأسبوع لتلى ، وكلهم هم الذين يقرعون الغيب فعنًا ..

وفى حماس ، تابع الجنرال ، دون أن ينتبه إلى دهشة (دلفى) وقبهاره :

- لقد أهدته موافقتك ، وعليك أن تستعد للسفر ، فى نهاية هذا الأسبوع .

تترع الشاب نفسه من ذهوله دفعة واحدة ، وإن لم ينجح فى إبعاد شحوبه ، وهو يقول :

- كما تأمر يا جنرال .

قللها ، وهم بالانصراف ، لولا أن تذكر فجأة المعنومة الأخرى ، التى وردت فى البرقية ، فتوقف فى مكانه ، وترك عينيه تشردان ، ووجهه يزداد شحوبًا ، مع تسارع أنفاسه ، فحدق فيه الجنرال ، وخفق قلبه فى سرعة ، وهو يزد فى انفعال :

- لقد جعاعك شيء .. أليس كذلك ؟! أليس كذلك يا (دلفى) ؟!

لم يبد على (دافى) حتى إنه يسمعه وهو يشير بيده
كسحرة الهنود . قائلاً بذلك الصوت الصميق ، الذى يحدث
أشباحاً خفية :

- ستثبت جدارتك بحق ، فى قيادة خط (بارليف) يا جنرال .

كاد قلب الجنرال يثب من بين ضلوعه ، وهو يهتف :

- ماذا قلت ؟ ماذا قلت ؟ هل ستولى قيادة خط (بارليف)
حقاً ؟

اصطنع (دافى) تلك الانتفاضة ، وحنق فى وجه الجنرال ،
كما لو أنه يراه لأول مرة ، ثم لعب دوره المعتاد ، فى
إنكار كل ما قال ، والإصرار على أنه لا يذكر حرفاً واحداً
منه ..

وعبثاً ، حاول الجنرال أن ينتزع منه المزيد من المعلومات ،
أو حتى تأكيداً لما قاله من قبل ، إلا أن الشاب ظل على حلقه ،
وأضاف إلى إصراره نظرة حائرة مرتبكة ، فارت شفقة
الجنرال ، وجعلته يكتفى بما حصل عليه ..

وفى مساء اليوم نفسه ، تلقى تكليف الوزارة له بتولى قيادة
الحصون الشمالية لخط (بارليف) ..

وطار الجنرال من الفرحة ، وقرّر مكثافة عرافه بلطف شيك
إسرائيلي ، لينفقها فى رحلته السياحية إلى (قبرص) .

ولكن (دافى) لم ينق قرشا واحدا منها فى الواقع ، فما
إن هبطت به الطائرة فى (قبرص) ، واستقر فى الفندق الذى
حجزته (ماجى تورز) ، حتى أتى من يحنده له موعداً سرى ،
فى الجانب الغربى من الجزيرة ..

وكما تدرّب (دافى) ، استقل سيارة أجرة إلى الساحل ، ومن
هناك حمته حافلة عامة إلى شمال المدينة ، ثم دار به زورق
إلى جانبها الغربى ، قبل أن يتجه إلى العنوان المحدد للقاء ،
ويطرق الباب ثلاث طرقات سريعة ، ثم طرفين متباعدين ،
حسب التعليمات .

وثوان ، خيل إليه أن أحداً لن يستجيب لطرقاته ، إلا أن الباب
لم يلبث أن فتح فجأة ، وأطل منه وجه مألوف ، يقول بابتسامة
هائلة رصينة :

.. أهلاً يا (أشرف) .. انتقلت كثيراً ..

وكاد قلب الشاب يثب من بين ضلوعه فرحاً ..

فقد كان صاحب الكلمات هو أستاذه ومدرّبه ..

رجل المخابرات المصري ..

(أمجد) ..

لسبب ما ، لم يتح لنا أبداً الحصول على التفاصيل الخاصة
بذلك اللقاء ، بين (أشرف) و(أمجد) ، في المنزل الآمن ، الذي
انتقلته المخابرات المصرية ، فوق ربوة خاصة ، تطل على
البحر مباشرة ، في (قبرص) .

ربما لأن (أمجد) ، كرجل مخابرات محترف ، لم يشأ
الإفصاح عن أسلوبه الخاص في التعامل مع عميل أرقه
العقل المتصل ، وتملكته فكرة التقاعد المبكر ..

أو لأن الشاب قد تلقى ، في ذلك الأسبوع ، الذي قضاه هناك
تدريبات خاصة ، مكثفة ، ومتطورة على نحو لا يمكن الإفصاح
عنه قط ..

ربما !

ولكن الشيء المؤكد هو أن (أمجد) كان بارعاً للغاية في
أداء دوره ، ففي نهاية الأسبوع ، كان (دافى) قد تخلّى تماماً
عن فكرة التقاعد هذه ، وأصبح ، على العكس تماماً مفعماً
بالنشاط والحماس ، ومستعداً لقضاء ما تبقى من عمره ،
في أداء دور العراف هذا ..

وعندما تصافحا في نهاية لقاتهما ، ونهاية تلك الدورة
التدريبية المكثفة ، التفت عيونهما بضع لحظات في صمت ، حمل
ما تعجز عن وصفه الكلمات ، قبل أن يربت (أمجد) على
كتف الشاب ، قائلاً :

.. (مصر) ما زالت بحاجة إليك يا (أشرف) .

ولم يعلق الشاب بحرف واحد ..

فقط سرت في جسده ارتجافة خاصة ، يفهمها كل من غرق
يوماً في شعور وطني جنون ، وتجمعت في عينيهِ اللواسعتين
دمعة كبيرة ، أسرع بشيح بوجهه لإخفائها ، وهو يفادر
المكان ، وكل نرة في كيانه تختلج ..

وبعد ساعات قليلة ، كانت الطائرة تحمله . مع باقى فوج
(ماجى تورز) ، عائدة إلى (تل أبيب) ..

وبينما تخلق الطائرة فى سماء (قبرص) ، ربت (ويليام)
على كتف (أمجد) . وهو يقول فى خفوت .

- لقد لعبت دورك كما ينبغي يا رجل .

أوما (أمجد) برأسه متفهماً ، وقال :

- المهم أن يلعب هو دوره كما ينبغي ..

صمت (ويليام) بضع لحظات ، قبل أن يسأله :

- ما الذى تتوقعه منه فى المرحلة القادمة ؟!

أجاب (أمجد) فى حزم :

- الكثير .

وصمت بدوره لحظة ، ثم لم يلبث أن أضاف بحزم أكثر :

- الوقت يمضى فى سرعة ، وساعة الصفر تقترب علينا

جميعاً أن تبذل جهداً أكبر .. أكبر بكثير ..

فى تلك الفترة ، فى أواخر ١٩٧١م ، كان الرئيس (السادات)
يؤكد أن الحسم قريب جداً ، حتى إن الكل راح يتأهب لمعركة
قادمة ..

ولأن هذا هو الانطباع الذى وصل إلى الشاب ، خلال أسبوع
التدريب المكثف ، فقد عاد إلى (إسرائيل) وكله حماس ، لجمع
أكبر قدر من المعلومات العسكرية والاقتصادية ..

ثم إنه كانت لديه وظيفة جديدة ، ومهمة تدرب عليها
جيداً ..

إرسال واستقبال الرسائل والأوامر والتعليمات والمعلومات ،
بواسطة جهاز اتصال لاسلكى ، أخفاه رجال المخابرات المصرية
بمهارة فذة فى حقييته الوحيدة ، التى ذهب وعاد بها من
(قبرص) ..

ولأنه لم يكن ، حتى تلك الفترة ، قد حصل على مسكن
مستقل فى (إسرائيل) ، فقد كان من الضروري أن يجد
مكاناً مناسباً ، لإخفاء جهاز الاتصال اللاسلكى ، واستخدامه
وقتاً بوقتاً ..

وفي الظروف المعتادة ، كان ينبغي أن يسعى لاستئجار مسكن خاص صغير ، في أطراف المدينة ، بحيث لا يشعر أحد بما يفعل ..

ولكن رجل المخابرات المصري (أمجد) كانت لديه خطة أخرى ..

خطة جديدة .. وجريئة ..

للقاية !

١٠ - (القاهرة) تنادي ..

في مذكرات أحد قادة المخابرات الإسرائيلية السابقين ، التي نشرت مؤخراً ، أشار الرجل إلى أن (الموساد) قد أدرك وجود تسرب في المعلومات ، للخاصة باستعدادات خط (بارليف) ، وأن أجهزة اعتراضه قد التقطت يوماً بالمصادفة بثاً لاسلكياً مشفراً ، رجحت أنه موجه إلى (مصر) ، إلا أنهم قد عجزوا تماماً عن تحديد مصدره ، أو كشف الثغرة ، التي تتسرب منها المعلومات ، قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ..

الشيء الذي لم يدركه رجل المخابرات الإسرائيلي ، والذي ربما لن يدركه ، حتى يقرأ هذه السطور ، هو أن تلك الثغرة الضخمة كانت تأتي من منزل الجنرال (كوهين) ، قائد شمال خط (بارليف) نفسه ..

هذا لأن خطة (أمجد) كانت جريئة للغاية ..

لقد وضع (دافى) جهاز الاتصال اللاسلكي ، الذي حصل عليه من المخابرات المصرية ، في جزء خفي من حجرته

الصغيرة ، التي يقيم فيها بصفة شبه دائمة ، في منزل
الجنرال (كوهين) ..

وعلى الرغم من أن الجنرال الإسرائيلي قد أصبح يقضى
اسبوعين من كل شهر ، في قلب استحکامات خط (بارليف) ،
إلا أنه أصر على أن يواصل (دافى) الإقامة في منزله ،
حتى تحظى زوجته بحيوان أليف ، تنبأه به أمام صديقتها ،
في حفلاتهن المنزلية المحدودة ..

وكان هذا الدور يناسب (دافى) تمامًا ..

ففي ليال عدة ، وبعد أن يخلد الكل للنوم ، كان هو يجلس
أمام جهاز الاتصال اللاسلكى ؛ ليثبت بعض المعلومات الجديدة ،
أو يستقبل بعض الطلبات ، والتعليمات ..

وعلى مدى عام كامل أو يزيد ، راحت رسائله تفرق
المخابرات المصرية بالمعلومات المهمة ، التي كان لها أكبر
الأثر في معرفة خفايا وتفصيل خط (بارليف) ، ووسائل
دفاعه واستحكاماته ، وإعداد ضباطه وجنوده ، وكلها
معلومات حصل عليها الشاب بأنثيه وعقله ، من خلال

أحدث مسترسنة ، على لسان الجنرال (كوهين) ورفاقه ،
في حفلاتهم ومجالسهم الخاصة ..

وحتى بعد أن أصبح أحد أهم جواسيس (مصر) ، في قلب
(إسرائيل) ، ظل الشاب على نفس بساطته وهدونه ، يكتفى
بالصمت والسكون والإنصات ، وينكمش دومًا في ضعف
واستكاته ، بحيث لا يثير لفتى شعور بالشك أو القلق ، أو حتى
الاهتمام ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من وجوده وسط عشرات
الحصانات ، من أجمل فئات المجتمع الإسرائيلي ،
لم يشعر بلسعة الحب مرة واحدة ، في خلال مهمته
كلها ..

صحيح أنه شاب ، في مقتبل العمر ، وأن العديداً قد
اتبهرن بموهبته المزعومة ، وسعين للارتباط به ،
مستخدمات كل سحرهن وعطر أتوثهن ، إلا أن قلبه لم
يخفق لإحداهن قط ، وكأنما صنع بينه وبينهن حاجزًا خفيًا
عجيبًا ..

ربما لأنهن إسرائيليات ، أو لأن قلبه كان منشغلاً ، منذ سنوات طوال ، بحب واحد ، ملأ شغاف قلبه ، واحتل كل حجرته وخلياه ، فلم يترك به خلية واحدة ، تكفى لحب آخر ..

(وفاء) .. ابنة عمه ، التي تصغره بعام واحد ، والتي لم تتوقف أسبوعاً واحداً عن مراسلته ، طوال السنوات الخمس الأولى ، من سفره مع جده إلى (أوكرانيا) ..

ثم كشف جده خطاباتها إليه ، وخطاباته إليها ، فغضب ، وثار ، وسجنه ثلاثة أشهر كاملة في حجرته ، منعه خلالها من إرسال أو استقبال أية خطابات أو رسائل ..

ولكن الشاب تظاهر بالخضوع والرضوخ فصب ، ولم يكذب تحرراً من أسره ، حتى عاد يرسل إلى ابنة عمه ، يشرح لها الموقف ، ويطلبها بإرسال خطاباتها إلى عنوان زميل من زملاء دراسته ..

ونظراً لتعقد الأمور ، تباعدت خطاباتها ، وأصبحت شهرية ، ثم ربع نسوية ، إلى أن انقطعت رسائلها تماماً ..

وربما كان هذا هو السبب الرئيسى ، الذى دفعه إلى التخطيط للفرار من الحاجز الحديدى ، إلى (مصر) ، دون أن يدرك بالكلية التى أصبحت أسرته هناك ..

وطوال تلك الفترة ، وعلى الرغم من كل ما واجهه وعقابه ، لم ينس (وفاء) قط ..

صورتها اتحفرت فى ذهنه وقلبه ، ولم يتوقف عن التفكير فيها قط ، حتى فى قلب أكثر حفلات الجنرالات صخباً ..

حتى عندما كان يبيت رسائله إلى (القاهرة) ، كان كثيراً ما يسأل عن أخبار (وفاء) ، التى وعده (أمجد) بالبحث عنها ، وجمع كل المعلومات الممكنة عن اختفائها ، بعد انهيار منزل أسرته ..

ومع كل رسالة تصل من (القاهرة) ، كان قلبه يختلج بين ضلوعه فى لهفة ، وهو يتمنى أن تحمل الرسالة شيئاً من أخبارها .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث قط ..

وبقيت (وفاء) مجرد ذكرى شباب وصبا ، وحلم حب
ملاً الشغاف والوجدان . حب لم يدانه سوى حبه لمشوقته
الأولى .. (مصر) ..

من أجلها ينزل كل هذا الكد والجهد ، ويواجه خطر اكتشاف
أمره في كل يوم ..
بل وكل لحظة ..

وفي تلك الليلة ، من ليالى ديسمبر ١٩٧٢ م ، وبعد أن
تجاوزت عقارب الساعة الثلاثة ، وضع معطفاً سميكا على
جسده التحيل ، وأخرج جهاز الاتصال اللاسلكى ، وراح يستعد
لاستقبال تعليمات جديدة من (القاهرة) . وقلبه يختلج بين
ضلوعه كالمعتاد ..

وفي الثالثة وسبع عشرة دقيقة ، بدأت الرسالة تصل ..
وبكل حواسه ، تهتمك في كتابة لرسالة الواردة ، وهو ينصب
إليها بكل انتباهه ، و

وفجأة ! طرق أحدهم باب حجرته ..

وتجمعت كل مشاعره دفعة واحدة ، وأتسعت عيناه عن
آخرهما ، وشعله ارتياح شديد ، وهو يستدير بكل كيانه إلى
باب الحجرة ، ولم يكذ يفعل ، حتى هوى قلبه بين قدميه ..

لقد كان الطارق يذير مقبض باب الحجرة بالفعل ، ليذلف
إليها ، دون أن ينتظر جواباً ..

وامتقع وجه الشاب ، حتى كاد يفقد وعيه ، وهو يتساعل
في ذعر عما يمكن أن يفعله ، في مثل هذه الظروف ..

جهاز اللاسلكى موضوع على المنضدة فى وضوح ، وإلى
جواره ورقة تحمل تفاصيل آخر رسالة من (القاهرة) . والتي
لم يعرف فحواها بعد ، وعلى مسافة متر واحد يقبع ذلك للكتاب ،
الذى يستخدمه لحل شفرة الرسائل ..

فخ محكم للغاية ، وأولية تكفى لإدانة بتهمة التجسس ،
وببقلته فى السجون الإسرائيلية مدى الحياة ..

كل هذا دار فى ذهنه فى لحظة واحدة ، دار خلالها مقبض
الباب ، الذى انفتح فى بطنه ، فحبس الشاب أنفاسه ، و ...

« (دلفى) .. ألت مستيقظ ؟! » ..

ميز صوت الخادمة الحسناء الجديدة (ليليان) ، فوثب بكل سرعته وقوته إلى الباب ، وأمسك المقبض بكل قوته وهتف وهو يلهث ، من فرط الانفعال والتوتر :

« ماذا تريدن ؟! »

حاولت أن تدفع الباب ، وهى تقول فى دلال :

« أريدك أن تشهد ثوب نومى الجديد . »

دفع الباب بدوره فى إصرار وتوتر ، قائلًا :

« فيما بعد .. ليص الليلة .. فيما بعد . »

أغلق الباب فى وجهها بعنف ، وأوصده من الداخل فى إحكام ، وسمعها تهتف من الخارج فى غضب :

« أيتها الجلف الوقح . »

تجاهلها تمامًا ، وهو يلقى جسده على طرف فراشه ، ويلهث فى عنف ، فى حين واصلت هى هتافها الخافت الساخط ، وهى تبتعد عن المكان ..

وما إن التقط أنفاسه ، واستعاد جأشه ، حتى هب فى سرعة ؛ ليترجم شفرة رسالة (القاهرة) ..
كنت رسالة صغيرة قصيرة ، على عكس الرسائل السابقة ، ولكنها كانت تطلب منه أمرًا خطيرًا ..
خطيرًا للغاية .

١١ - خط النار ..

ارتفعت ضحكات الجنرال (كوهين) عالية مجلجلة ،
تتردد في منزله كله ، عند عودته من الجبهة ، وعلى عكس
كل ما تقتضيه قواعد الأمن والعقل ، راح يروي لزوجته
وأولاده متاعبه في إدارة الحصون الشمالية لخط (بارليف) ،
وأوجه النقص والقصور فيها ، على مسمع من الخدم ،
ومن (دافى) ، الذى اعتاد الكل التعامل وكأته لاجوده له ،
فلا يشعر أحد بحذر أو خجل أو حرج من وجوده ، حتى إن
(دافى) كان يصف نفسه فى تقاريره ، التى يرسلها إلى
(القاهرة) ، باعتباره الرجل الخفى ، أو الشفاف ، الذى
لا يبالى به أحد ..

وكانت هذه الصفة تصعد (القاهرة) كثيراً ، إذ إنها تمنح
رجلها حق الاستماع لكل ما يقال ، والاطلاع على كل ما يقع
أو يحدث ، دون شك أو قلق ..

وفى ذلك اليوم ، اكتفى (دافى) بعادته بمتابعة حديث
الجنرال مع أسرته ، وزهوه بسلطته ، وسطوته ، وحساسيه
منصبه ، ثم لم يلبث أن تحدث فجأة بهدوء شديد ، متسائلاً :

- ترى كيف يبدو خط (بارليف) هذا من الداخل ؟!

لم يكذ ينطقها ، حتى ساد صمت تام مفاجئ ، والتفتت
العيون كلها إليه دفعة واحدة ، وتركزت على وجهه النحيل
وجسده الضئيل ، على نحو جعل قشعريرة باردة كالتلج
تمرى فى جسده ، وجعله يتصور أن سؤاله هذا قد هتك
ستره ، وكشف أمره ، وأعلن ما أخفاه طوال كل هذه
السنوات ، وخاصة عندما هتف الجنرال بصوته الجهورى :

- ولماذا تسأل ؟!

امتقع وجه الشاب ، وشحب أكثر وأكثر ، حتى بدا شكله
بائساً ، يدعو للعطف والشفقة ، وهو ينكمش فى مقعده ،
قليلًا :

- إنها مجرد فكرة فقتز إلى رأسى .

تبادلت الزوجة نظرة سريعة مع زوجها ، قبل أن تنقل
إلى مقعد قريب من (دافى) ، وتسأله فى لهفة :

- مجرد فكرة ، أم وحى مرء برأسك .

انتبه فوراً إلى منظورهم للأمر ، فتراجع في مقعده ،
وتظاهر بشيء من الشرود ، وهو يغتم :

- خط (بارليف) .. الجنرال (كوهين) .. التاريخ .

ثم انتفض بفتة ، وحدق في وجوههم جميعاً ، قبل أن
يغادر الانكماش في مقعده ، متسائلاً في لهجة أقرب إلى
الذعر :

- هل .. هل قلت شيئاً ما ؟!

وكالمعاد ، لم ينجح أيهم في انتزاع كلمة واحدة منه ،
أو حتى تأكيد لما قاله ، وتركهم وهم يضربون أخماساً في
أسداس ، في محاولة لتفسير الكلمات ، التي ألفها بذكاء
يُحسد عليه ..

الزوجة بالذات ، راحت تربط بين الكلمات الثلاث ، لتخرج
منها بالعبارة التي ترضى غرورها وطموحها ..

خط (بارليف) سيدخل التاريخ ، تحت قيادة زوجها
(كوهين) ..

ولو أن الأمر مُدبر ، لما سار على هذا النحو المثالي ،
فقد وقر في ذهن زوجة الجنرال (كوهين) وقلبها ، أن
(دافى) سيطلق نبوءته كاملة ، لو زار خط (بارليف) مع
زوجها ..

وبكل إلحاحها ، وباستخدام ما تبقى لديها من أسلحة
أنثوية ، أفتعت زوجها ، الذي لم يكن بحاجة إلى ضغط
شديد ، باصطحاب (دافى) في زيارة خاصة إلى حصون
خط (بارليف) ..

وكان هذا بالضبط ما تشده المخابرات المصرية ،
وما طلبته من (دافى) ، في آخر اتصال لاسلكي تلقاه ..

أن يسعى لدخول حصون خط (بارليف) ..

وبأى ثمن ..

وفي أوائل مارس ١٩٧٣ م ، اصطحب الجنرال (كوهين)
تابعه وعرفاه الخاص (دافى كرينهال) ، إلى خط
(بارليف) ..

وبهذه المناسبة ، ارتدى (دافى) سترة أثيقة ، ذات أزرار كبيرة لامعة ، بدا فيها مضحكاً إلى حد ما ، على الرغم من ألقائها ..

ولكن هذه السترة كانت أهم شيء ، فى هذه الرحلة العسكرية الخاصة ..

ففى قلب أحد أزرارها الكبيرة ، كانت تختفى آلة تصوير دقيقة ، تحوى ميكروفيلاً خاصاً ، لالتقاط كل الصور الممكنة لخط (بارليف) ، وبواسطتها جمع الشاب كمية من الصور والمعلومات ، تكفى لكشف كل تفاصيل لقوى خط دفاعى عسكرى عرفه التاريخ ، وتضع كافة أسرارهِ تحت أعين وبصر المصريين ، كما لو كان نموذجاً مفتوحاً ..

وعبر عميل سرى آخر ، وبعد عودة (دافى) من الجبهة ، تم نقل كل الصور والوثائق والمعلومات إلى (القاهرة) ، حيث راح الرجال يدرسون كل سنتيمتر ، ويراجعون كل كلمة وحرف منها ، حتى تمكنوا أخيراً من صنع نموذج مجسم ثلاثى الأبعاد لحصون خط (بارليف) ، كما تمكن الجيش من إقامة وحدة من

وحداته بالحجم الطبيعى ؛ ليتم تكريب رجال الصاعقة والكوماندوز عليها ؛ استعداداً ليوم الحسم الذى يقترب فى سرعة .

للجنرال (كوهين) وحده شعر بخيبة أمل ، عندما اصطحب (دافى) إلى خط (بارليف) ، متجاوزاً كل الأوامر ، وكل قواعد العصرية والمنطق ، ثم لم يسفر هذا عن شيء ..

ولقد كاد الأمر يمضى ، وينساه الكل ، لولا زيارة مفاجئة ، أشعلت الموقف كله ، على نحو لم يتوقعه أحد ، حتى (دافى) نفسه ..

كان الجنرال (كوهين) قد أنهى إجازته ، وعاد إلى الجبهة ، تاركاً (دافى) خلفه ، عندما وصل رجل المخابرات الإسرائيلى (رافيف) فجأة إلى منزل الجنرال (كوهين) ، وطلب مقابلة (دافى كرينهال) ..

كانت مفاجأة حقيقة قوية للشاب ، الذى كان يرتجف بحق ، عندما خرج لمقابلة (رافيف) ، الذى استقبله بنظرة صارمة باردة قائلاً :

- لماذا ذهبت إلى خط (رافيف) ؟!

لوح الشاب بيده ، وارتجف صوته مع جسده الضئيل
النحيل ، وهو يجيب في خوف ، لم يحاول إخفاءه :

- الجنرال طلب مني أن أصحبه إلى هناك .

زمجر (رافيف) وهو يقول :

- وهل تطيع الجنرال ، في كل ما يأمرك به ؟

أجابته في سرعة :

- بالتأكيد .

رمقه (رافيف) بنظرة طويلة أخرى ، من قمة رأسه .
وحتى أخمص قدميه ، قبل أن يقول ، في شراسة واضحة :

- أظنني أحتاج لاستجوابك جيدًا ، في مقرنا الرئيسي .

هوى قلب (دافى) بين قدميه ، وأطل من عينييه
ذعر كبير ، وارتجف جسده في شدة ، وهو يسأل
نفسه :

- هل سيمنحه خداع جهاز كشف الكذب مرة أخرى ، كما فعل
منذ عدة سنوات ، على الرغم من أنه لم يواصل التدريب
على هذا قط ، منذ ذلك الحين ؟!

وبكل المقاييس ، بدا له أن هذه هي النهاية .

نهايته .

ولكن فجأة ، افتحمت زوجة الجنرال الحجرة ، على نحو
يوحي بأنها كانت تنصت لما يحدث في الخارج ، وبدأت أشبه
بأعصار ثائر ، وهي تقول في حدة :

- (دافى) لن يفقد هذا المنزل ، إلا في حضور الجنرال .

شد (رافيف) قلته ، وتعدّد حجاباه في صرامة ، وهو يقول :

- سيدتى . هذا أمر يخص الأمن القومي ، ولن أسمع

بـ . . .

فوجئ بها بتقطعه في غضب هادر ، قائلة :

- هل تحاول تهديدى ؟ فليكن يارجل المخابرات أنا

أعرف من يمكنه وضعك في حجمك الصحيح .

قالتها ، واختطففت سماعة الهاتف ؛ لتتصل فوراً بنائب رئيس المخابرات الإسرائيلية ، الذى يعد ضيفاً دائماً فى حفلاتها ..

وبمنتهى الحنق والغضب ، غادر (رافيف) المنزل ، مع أوامر من رئيسه بعدم التعرض للمدعو (دافى كرينهال) مرة أخرى ، إلا بموافقة الجنرال (كوهين) نفسه ..

وكان هذا أكبر تأمين حصل عليه الشاب فى عملياته كلها ، وأكبر وسيلة تأمين منحتة إياها المجاملات الأمنية الإسرائيلية ، فعاد يواصل عمله بمنتهى النشاط والحماس ، ويرسل المزيد والمزيد من المعلومات ، حتى استقبل ذات ليلة ، رسالة عاجلة ومهمة للغاية من (القاهرة) ..

رسالة تطلب منه مغادرة (تل أبيب) ، و (إسرائيل) كلها ..

فوراً ..

١٢ - الرحلة الأخيرة ..

كانت ليلة باردة ، من ليالى سبتمبر ، عندما وصلت تلك الرسالة العاجلة من (القاهرة) ، عبر جهاز الاستقبال اللاسلكى ؛ لتطالب (دافى) بمغادرة (إسرائيل) فوراً ، وتمنحه رقم هاتف للاتصال به ، فى نفس ساعة استقبال الرسالة ..

ولقد ألقى هذا (دافى) كثيراً ، إذ إن الرسالة قد وصلتته ، فى الفترة التى يكون فيها الجنرال (كوهين) على الجبهة ، وأوامر هذا الأخير ألا يذهب هو إلى أى مكان ، دون الحصول على موافقته ..

ثم إنه لم يفهم سر السرعة والتعجل ، مادامت الأمور كلها هدية ومستقرة ، وكل جنرالات (إسرائيل) يؤكدون أن المصريين لا يفكرون مطلقاً فى شن أية حروب على (إسرائيل) ، فى الشهور القادمة على الأقل ..

ولكنه نطاع أوامر (القاهرة) دون مناقشة ، والتقط سماعة الهاتف ، فى الثالثة والرابع صباحاً ، ليتصل بالرقم الذى ورد فى الرسالة ..

ولدهشته ، لم يكد الهاتف يطلق رنينه الأول ، على الطرف الآخر ، حتى التقط أحدهم السماعة في سرعة ، وكأنما ينتظر هذا الاتصال بالذات ، وقال :

- صباح سعيد .

كانت هذه هي العبارة المتفق عليها في الرسالة ، لذا فقد أجاب (دافى) في خفوت حذر :

- صباح مشرق . لقد طلبوا منى الاتصال بك

قال المتحدث عند الطرف الآخر في حزم :

- غدا .. السابعة صباحا .. شارع (بن جوريون) .

سيارة فورد زرقاء .. رقمها

سجل الشاب كل حرف في ذاكرته ، وأنهى الاتصال ، ثم راح ينفذ باقى ماورد بالرسالة ، بمنتهى الدقة والإتقان ، وكما تدرب تماما في (قبرص) ..

فك جهاز الاتصال اللاسلكى ، وحوّله إلى ثلاث قطع منفصلة ، ألقاها في حقيبتة الصغيرة ، ثم أفرغ زجاجتى

الحبر السرى والمظهر فى الحوض ، وقام بحرق بعض أوراق الكربون الأبيض ، وتخلص من كتاب الشفرة ، ثم ترك كل ملابسه ، فيما عدا ما ارتداه ، وتلك السترة ذات الأزرار الكبيرة اللامعة ، وتسلسل من منزل الجنرال (كوهين) ، مع نسيمات الفجر الأولى ..

وفى تمام السابعة ، كان يدلف إلى تلك الفورد الزرقاء ، فى شارع (بن جوريون) ، والتي لم يكد يستقر داخلها ، حتى انطلقت به فوراً إلى المطار ..

وفى الثامنة والربع ، كان يستقل واحدة من طائرات شركة (العمال) الإسرائيلية ، ضمن فوج سياحى من (ماجى تورز) ، فى طريقه إلى (روما) ..

وطوال رحلته ، حاول (دافى) أن يجد تفسيراً لما يحدث ، ولهذا الأسلوب البوليسى العجيب لإخراجه من (إسرائيل) ، على الرغم من إمكانية القيام بالعمل نفسه ، عن طريق انضمامه لفوج سياحى ، كما حدث من قبل ..

ولقد أعبته الحيلة فى البحث عن الجواب ، حتى هبطت به الطائرة فى (روما) ، ووجد (أمجد) أمامه ، يتسم فى ترحاب ومودة ، قتلأ :

- حمداً لله على السلامة يا بطل ..

لحظتها نسي كل قواعده الأمن والنيافة . وانقض عليه
يعاقبه ، هاتفا بكل فرحته وسعادته :

- سيد (أمجد) .. لا يمكنك ان تتصور كم تسعدني رؤيتك

ألقي كل ما لديه من اسلحة على مسامح (أمجد) ، وهما
يستقلان واحدة من طائرات (مصر) للظيران ، في طريقهما
إلى (القاهرة) ، ولكن (أمجد) اكتفى بالتسامح هدنة .
دون أن يجيب تساؤلاته قط ..

ولكن الأحداث منحته نصف الجواب ، عندما اندلعت حرب
أكتوبر ١٩٧٣ م ، بعد عودته إلى (القاهرة) بأسبوع واحد .
وعندما شاهد قواتنا تجتاح خط (بارليف) ، وتستحقه سحقاً .
وترفع فوقه علم (مصر) .

لحظتها أدرك أنهم قد أخرجوه من (إسرائيل) لتأمينه ،
حتى لا ينكشف مصدر ما حصلوا عليه من معلومات عن
خط (بارليف) ، عندما تندلع الحرب ..

وعندما التقى به (أمجد) ، في مبنى المخابرات العامة
المصرية ، بعد وقف إطلاق النار ، في الرابع والعشرين من
أكتوبر ، فسّر له الجزء الناقص من الغموض ، قائلاً :

- كنا نحتاج إلى كل ما ترسله من معلومات ، في الأيام
الأخيرة قبل الحرب ، وكان من الخطأ إخراجك من
(إسرائيل) ، أثناء إجازة الجنرال (كوهين) ، لأن كل دقيقة
تقضيها في منزله قد تعني معلومة جديدة مفيدة ، وعندما
عاد إلى الجبهة ، كان الوقت المتبقى قليلاً ، وكان من
الخطر إضاعة أية ساعة ، في محاولة إقناع زوجة الجنرال
العنيدة بالموافقة على سفره ، في ذلك الفوج السياحي
إلى (روما) ؛ لذا لم يكن هناك مفر من أن تغادر بهذا
الأسلوب البوليسي .

سأله (أشرف) في اهتمام :

- وماذا فعلوا ، عندما اختفيت هكذا فجأة ؟!

ابتسم (أمجد) ، قائلاً :

- تصوروا أنك قد مللت لعبة القط الأليف ، وقررت
للبحث عن استقلالية وخصوصية .

صمت (أشرف) لحظة ، ثم سأل في اهتمام أكثر :

- هل تعتقد أنهم سيدركون ما فعلته ؟!

ضحك (أمجد) ، قائلاً :

- إن عاجلاً أو آجلاً ، دون أدنى شك .

ثم هز كتفيه ، مستطرداً :

- ولكن أينيك هذا ؟!

- مطلقاً .

نهض (أمجد) من خلف مكتبه ، وربت على كتفه ،

قائلاً :

- الواقع أن ما قمت به كان عملاً بطولياً حقيقياً

يا (أشرف) .

غمغم الشاب في خجل :

- لقد فعلت ما أملاه عليّ واجبي فحسب .

قال (أمجد) :

- هذا صحيح ، ولكنك تستحق مكافأة خاصة ، على

ما احتملته طوال تلك السنوات .

قال (أشرف) في حماس :

- لقد سلموني راتبى كاملاً ، عن الفترة كلها ، ولدى الآن

شقة جميلة ، في (مصر الجديدة) ، تم تأثيثها بالكامل ،

وسيارة صغيرة ، ووظيفة ممتازة في

قاطعه (أمجد) ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، ويربت

على كتفه مرة أخرى ، في مودة شديدة :

- إننى أتحدث عما ينقص الصورة يا رجل .. عن المكافأة

التي يمكننى تقديمها لك بصفة شخصية .

ثم اتجه نحو باب الحجرة الملحقة بمكتبه ، وفتحه ، وهو

يكمل :

- قل لى ، ما الذى كنت تبحث عنه بإصرار ، طوال كل

السنوات الماضية ..

استمع عينا (أشرف) عن آخرهما ، وخفق قلبه في قوة

لم يعهدها من قبل ، وهو يحدق في تلك الشابة الفاتنة

الرقيقة ، ذات الفم الدقيق والعينين الواسعتين ، والتي

ظهرت عبر الباب المفتوح ، وتضرج وجهها بحمرتى

الخجل والسعادة ، وهي تقول :

- حمداً لله على سلامتك يا (أشرف) .

بكل مشاعره ، وانفعالاته ، وحبه ، وشوقه ، وأحلامه ،
ونكرياته ، وفرحته ، وجد نفسه يندفع نحوها ، صارخاً
بالاسم الذي يعشقه حتى النخاع :

- (وفاء) !

ومن المؤكد أنها كانت أسعد لحظة في حياتهما كلها ،
فهذا ما أعلنت عنه بموعهما ، وفرحتهما ، وأصابعهما
المتعانقة في شوق وحب ولهفة ، لذا فقد أشاح (أمجد)
بوجهه ، ليخفي تأثره ، وابتسامته الحاتية ، وهو واثق في
أعماقه أنه يشهد بداية حياة جديدة ، انتهى فيها دور
(دافى كرينهال) ، لتوضع اللبنة الأولى لأسرة جديدة ..

تمت بحمد الله

موسوعة الجاسوسية :

المخابرات العلمية والتقنية

هي المخابرات المسنولة عن متابعة الأبحاث ، والتقدم
العلمي والتقني الأجنبي ، بكل ما يتضمنه من تطوير في
الأبحاث الأساسية وتطبيقاتها ، وقدرات وحدود النظم
العسكرية ، وتطوير الأسلحة والمواد الأخرى ، الصناعية
والتصنيعية ، في الدول الأجنبية ، كوسيلة للحصول على
إنذار مبكر ، عن حصول الخصوم الحاليين أو المحتملين
على أسلحة أو وسائل جديدة .

ولقد ظهرت المخابرات العلمية لأول مرة ، في الحرب
العالمية الثانية ، لمتابعة عملية تطوير الأسلحة النازية ،
على يد العالم البريطاني (ر. ف. جونز) ، والذي أصدر
في عام ١٩٧٨م ، تحفته الرائعة (الحرب الساعرة) ،
والتي حدد فيها الخطوط العريضة ، عن كيفية نشوء سلاح
جديد ، من خلال :

١ - بحث علمي عام ، ذو طبيعة أكاديمية أو تجارية .

٢ - شخص ذو صلة وثيقة ، مع جهاز مخابرات ، أو جهاز خدمة عسكرية ، وعلى وعى تام بمتطلبات هذه الأجهزة ، ويدرس كيفية تطبيق نتائج الأبحاث الأكاديمية ، في مجالات عسكرية .

٣ - إجراء بحث خاص ، ومحاولات صغيرة نسبياً ، في المعاملة العسكرية ، حول ما تم التوصل إليه أكاديمياً .

٤ - توسع المحاولات والتجارب ، والوصول إلى نتائج أولية ، توحى بالأهمية في المجال العسكري .

٥ - تبني الأجهزة المعنية موضوع البحث ، وتطويره عسكرياً .

ولقد أشار دكتور (جونز) إلى أن المرحلة الأولى ، تتدرج تحت بند المطومة العامة ، التي يمكن للكل معرفتها ، أما المراحل التالية ، فالوسيلة الوحيدة لمعرفتها هي

التجسس ، وكشف الأمر من خلال المتابعة ، أو من تصرف طائش ، من بعض العاملين في البحث .

ولقد كان دكتور (جونز) رئيساً للمخابرات العلمية ، للسلاح الجوي البريطاني ، ومستشاراً علمياً للمخابرات البريطانية السرية (M16) ، في الفترة من ١٩٣٩م ، وحتى ١٩٤٦م .

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

العراف



د. نبيل فاروق

صفحة

٥ « وسام إسرائيلي للإرهاب
مذكرات رجل مخابرات »

١٣ « الجانب الآخر

٢٥ « نساء الجاسوسية : أم الجاسوسات
حرب المعرفة :

٢٩ المعلومات (الحلقة الرابعة)

٤٢ « أشهر الجواسيس : رودلف أبل
موضوع العدد :

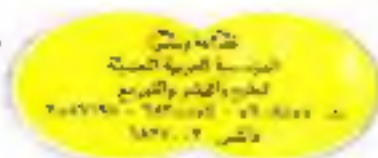
« العراف

٤٩ من قصص الصراع العربي الإسرائيلي
- موسوعة الجاسوسية

١٥١ « المخابرات العلمية والتقنية

١٥٤ « ماذا تقترح ؟

الظمن في مصر
وما يعانده بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم



صراع العقول
الذي يتفوق
دوماً على أعتى
الأسلحة والمعدات

